مجلة كلية الآداب بالوادي الجديد- مجلة علمية محكمة- ديسمبر ٢٠٢٣

حملة حسن باشا الجزائرلي على مصر (١٢٠٠- ١٢٠١هـ/ ١٧٨٦- ١٧٨٧م)
دراسة نقدية في ضوء المصادر العربية والعثمانية

د/ محمد عبد العاطي محمد(*)

الملخص:

تعتمد هذه الدراسة على المصادر العربية والعثمانية المعاصرة المخطوطة والمطبوعة، وتتناول الجهود التي بذلتها الحكومة العثمانية في إعادة ولاية مصر إلى سلطتها بإرسال حملة حسن باشا الجزائرلي عام ١٢٠٠هـ/ ١٧٨٦م؛ لتأديب المماليك الذين بلغ ظلمهم الأهالي درجةً كبيرةً، ومنعهم إرسال الخزينة الإرسالية للدولة العثمانية، وتطاولهم على الأجانب المقيمين في مصر مما جعلهم يقدمون شكاياتهم للدولة العثمانية، ولاتصالهم أي: المماليك –بروسيا– العدو التقليدي للدولة– من أجل الانفصال بولاية مصر عن سلطة الدولة.

وقد خاض حسن باشا الجزائرلي عدة حروب ضد المماليك، وإن لم يقضِ عليهم نهائيًا؛ لضيق الوقت وقلة المال، فإنه أعاد مصر لسلطة الدولة من جديد، وأجبر المماليك على الإقامة في الصعيد وعدم دخول القاهرة، وأجرى إصلاحاتٍ إداريّةً في الولاية، ثم عاد إلى الدولة للمساعدة في حرب روسيا بعد أن عقد صلحًا مع أمراء المماليك، ليضبط الأوضاع في الولاية.

اتبعت الدراسة المنهج التاريخي النقدي القائم على عرض الوقائع التاريخية من خلال استقراء الوثائق والمصادر العثمانية والعربية، وتحليلها ونقدها، حسب مقتضيات الدراسة.

الكلمات المفتاحية: حملة حسن باشا على مصر– حسن باشا الجزائرلي– مصر العثمانية– الدولة العثمانية – المصادر العربية والعثمانية – الوثائق – المخطوطات.

Abstract:

This study depends on both manuscript and printed Arabic and Ottoman contemporary sources. It deals with the efforts made by the Ottoman government to bring Egypt back under its supremacy, by sending an expedition under Hassan Pasha Algaza'erli in ١٢٠٠ AH / ١٧٨٦ AD. The aim of the Expedition was to punish the Mamluks, because of their oppression towards the people, which has reached a great degree, and also because they prevented sending Irsaleeya treasury to the Ottoman state and encroached upon foreigners residing in Egypt which lead them to complain against the Mamluks to the Ottoman State, and moreover, because they (the Mamluks) contacted with the Russians – the traditional enemy of the Ottomans – in order to detach Egypt from the Ottoman authority.

Hassan Pasha Algaza'erli fought several battels against the Mamluks, and although he did not completely eliminate them; due to lack of time and money, but he succeeded in bring Egypt back under State's Supremacy, forcing the Mamluks to reside in Upper Egypt and preventing them from entering Cairo. He pursued administrative reforms in the Vilayet, and after concluding peace with the Mamluk princes to consolidate the affairs in the Vilayet, he returned to help the State in the war against Russia.

(*) مدرس بقسم التاريخ كلية الآداب- جامعة سوهاج

This study followed the "historical – critical" approach that relies on presenting historical facts though exploring, analyzing and criticizing Arabic and Ottoman documents and sources according to the study requirements.

Key words: Hassan Pasha Algaza'erli's expedition on Egypt - Hassan Pasha Algaza'erli – Ottoman Egypt – Ottoman State - Arabic and Ottoman sources – Documents – Manuscripts.

مقدمة

شهد القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي تحولات في الأوضاع السياسية في ولاية مصر نتيجة ضعف السلطة العثمانية وزيادة قوة المماليك، وصراعات بين المماليك والوالي العثماني من جانب، وبين المماليك بعضهم بعضًا من جانب آخر. وكان انشغال الدولة العثمانية بحروبها مع دول أوروبا –في ذلك الوقت–، وعدم اهتمامها بإرسال والي قوي إلى مصر؛ قد سمح للأمراء المماليك بمحاولة الانفراد بحكم الولاية، وتأسيس سلطة مستقلة بها، كما بدأت هذه الحركات المملوكية الاتصال بدول أوروبا –التي كانت تعمل حينها على كسب نفوذ لها في منطقة المشرق– حيث اتصل علي بك المملوكي بروسيا، وطلب منها مساعدته في إقامة دولة مملوكية في مصر والشام، والوقوف معه ضد السلطان العثماني[١].

وفي تلك الأثناء عزل علي بك والي مصر "محمد باشا الأورفه لي"[٢]، وطرده منها، وعيّن نفسه شيخًا للبلد، فأصبحت السلطة الفعلية لولاية مصر بيده في الفترة من ١١٨٢هـ/ ١٧٦٩م إلى ١١٨٨هـ/ ١٧٧٣م، وأكثر من شراء المماليك، لتكوين عصبية مملوكية داخل مصر، وحرم الدولة العثمانية من الخزينة الإرسالية[٣] ومن واردات مصر العينية. ومن الملاحظ أن الحكومة العثمانية لم ترسل واليًا من طرفها إلى مصر؛ لانشغالها بالحرب مع روسيا[٤].

عقب نهاية الحرب الروسية العثمانية بدأت الدولة العثمانية تتابع عن كثبٍ الشؤون المصرية، فاستمالت إليها محمد بك أبو الذهب، فتمكن بمساعدة إسماعيل بك المملوكي من هزيمة علي بك وقتلِه في عام ١١٨٨هـ/ ١٧٧٣م. وبهذا عادت ولاية مصر من جديد إلى سلطة الدولة العثمانية، فأرسل أبو الذهب الخزينة الإرسالية للدولة، كما طلب إرسال والي عثماني إلى مصر[٥]. وذكر كاتب الوقائع أنوري بك –المعاصر لهذه الفترة– في تاريخه أن

---

[١] طلب علي بك سنة ١١٨٧هـ/ ١٧٧٢م المساعدة من روسيا، وأرسل ذو الفقار بك إلى "أورلوف" مع رسالة إلى "كاترين الثانية"، فرد عليه برسالة ودية وأرسل إليه ضابطين وثلاثة مدافع. يُنظر: أميل خورى وآخر: السياسة الدولية في الشرق العربي، دار النشر للسياسة والتاريخ، بيروت ١٩٩٠م، ج١، ص٢٢-٢٤.

[٢] وصل مصر في ربيع الآخر سنة ١١٨٢هـ/ ١٧٦٩م، وعزله علي بك في ٢٧ رجب من السنة نفسها. يُنظر: مصطفى الصفوي القلعاوي: صفوة الزمان فيمن تولى على مصر من أمير وسلطان، تحقيق: محمد عمر عبد العزيز عمر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ٢٠٠٦م، ص ٢٦٧.

[٣] هي الأموال المتبقية من خزينة مصر بعد أداء مصروفاتها الاعتيادية داخل الولاية أي ما تبقى من ميزانية الولاية خلال عام مالي كامل، يُرسل إلى عاصمة الدولة العثمانية وكان يُطلق عليه "خزينة الجيب الهمايوني". يُنظر: Seyyid Muhammed es-Seyyid, "İrsaliye", DİA, c. ٢٢, Ankara, ٢٠٢٠, s.٤٥٢- ٤٥٤.

[٤] محمد رفعت رمضان: علي بك الكبير، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٩٨م، ص٥٣، ٥٤.

[٥] أحمد جودت باشا: تاريخ جوت، ترتيب جديد، در سعادت، مطبعه عثمانيه، استانبول ١٣٠٩هـ، ج٢، ص ٢٨٦ ، ٢٨٧. وقد أرسلت الدولة بالفعل واليًا على مصر هو مصطفى باشا النابلسي، وأكرمه محمد بك أبو الذهب وأسكنه في بيت على بركة الفيل، وتولى من ٢٨ جمادى الآخرة ١١٨٨هـ/ ١٧٧٣م إلى ١٢ جمادى الآخرة ١١٨٩هـ/ ١٧٧٤م، وتوجه إلى جدة ومات بها، يُنظر كذلك: القلعاوي: صفوة الزمان فيمن تولى على مصر من أمير وسلطان، مخطوط، مكتبة جامعة برنستون بأمريكا تحت رقم ١٨٣، ورق ٤٣أ.

الخزينة الإرسالية التي أرسلها محمد بك أبو الذهب إلى إستانبول استُقبلت بترحاب كبير لدى الدولة(١).

انقسم المماليك بعد وفاة محمد بك أبو الذهب إلى فرقتين: المُحَمَّدية -أتباع أبي الذهب- ويمثلها إبراهيم بك ومراد بك، والعَلَوية -أتباع علي بك- ويمثلها إسماعيل بك وحسن بك الجداوي، وقد بدأت الصراعات والحروب بينهما على المناصب والنفوذ، حيث كان إبراهيم بك يسيطر على منصب "شيخ البلد"(٢) يساعده مراد بك، وإسماعيل بك على منصب أمير الحج والدفتردار يساعده حسن بك الجداوي، فتمكن إسماعيل بك وأتباعه من هزيمة إبراهيم بك ومراد بك وطردهما من القاهرة، واستولى إسماعيل بك على منصب شيخ البلد، واعترف به الوالي العثماني عزت محمد باشا(٣)، وذلك في ٢٢ جمادى الآخرة ١١٩١هـ/ ٢٨ يونيه ١٧٧٧م، وبهذا عادت ولاية مصر إلى سلطة العلوية من جديد(٤).

لم يستمر الوضع في مصر كما كانت تريد الطائفة العلوية، حيث تمكن إبراهيم بك ومراد بك من جمع أتباعهما من الصعيد، وقررا العودة إلى القاهرة، وانتصرا في المعركة التي وقعت مع خصمهم إسماعيل بك، فهرب إسماعيل بك إلى غزّة، ومنها إلى إستانبول(٥)، وأصبح إبراهيم إبراهيم بك شيخاً للبلد -من جديد- وصاحب الكلمة العليا في البلاد، ولم يكن لوالي مصر أي نفوذ في الولاية، فلم يكن يُصدِر أية أوامر من دون الرجوع إلى إبراهيم بك(٦)، وبهذا عادت السلطة الفعلية في مصر إلى المماليك -أتباع محمد بك أبو الذهب-.

تدهورت الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في مصر، وزاد الظلم وانتشرت الفوضى من جانب أمراء المماليك؛ وذلك لعدم اعتبارهم سلطة الوالي، حتى إنهم تجرأوا على عزله من الولاية وطلبوا تعيين غيره، وزادوا من قيمة الضرائب المفروضة على الأهالي، وتعدوا على دُور المسيحيين وكنائسهم في الإسكندرية ومضايقة الرعايا الأجانب فيها، ومنعوا إرسال الخزينة الإرسالية إلى إستانبول والمخصصات المالية للحرمين الشريفين؛ كل ذلك كان سببًا في اجتماع أركان الدولة في إستانبول لبحث الشؤون المصرية وإعادة النظام للولاية(٧).

---

(١) أنوري سعد الله: تاريخ أنوري، مخطوط، ملت كتبخانه سى، علي أميري كتابلغى، رقم ٦٧، ورق ٣٣أ، وللنسخة التركية يُنظر: Hikmet Çiçek, vekayinüvis Sadullah Enveri Efendi ve Tarihinin II. Cildinin Metin ve Tahlili (١١٨٧–١١٩٧/١٧٧٤–١٧٨٣), yayınlanmamış Doktora Tezi, Atatürk Üniversitesi, Erzurum ٢٠١٨, s.٤٨٨- ٤٨٩.

(٢) منصب شيخ البلد: هو الرئيس العرفي لجميع الأمراء المماليك في مصر ويعرف بحاكم مصر أو زعيم مصر، وكان أول شيخ بلد في مصر هو جركس محمد بك في الفترة من ١٧٢٤- ١٧٢٦م، وبعده إبراهيم كتخدا ١٧٤١- ١٧٥٤م، ولأهمية هذا المنصب كانت أحيانًا ترد أوامر من الدولة باسمه. يُنظر: Refet Ganımı Eş-şeyh, Şeyhülbeled, TDV İslâm Ansiklopedisi, İstanbul ٢٠١٠, c. ٣٩, s. ٨٩-٩٠.

(٣) عزت محمد باشا: تولى ولاية مصر في الفترة من ١٧ ربيع الأول سنة ١١٩٠هـ/١٧٧٦م إلى ١٥ جمادى الآخرة سنة ١١٩٢هـ/ ١٧٧٨م، وعزله أمراء مصر، وسافر إلى الدولة العثمانية. يُنظر: مصطفى الصفوي القلعاوي، مصدر سابق، ص ٢٧٦، ٢٧٧.

(٤) جودت باشا: مصدر سابق، ج٢، ص ٢٨٩.

(٥) جودت باشا: مصدر سابق، ج٢، ص ٢٨٩.

(٦) Hilal Görgün، İbrâhim Bey, TDV, XXI, s. ٢٨٥-٢٨٧.

(٧) جودت باشا: مصدر سابق، ج٢، ص ٢٩٤-٢٩٥.

المبحث الأول
أسباب الحملة وأهدافها

أسباب الحملة:

اتفقت أغلب المصادر العربية على أن أهم أسباب الحملة: طلب الخزائن المتبقية من الأعوام السابقة على المماليك، وتأديبهم بعد زيادة ظلمهم وجورهم للشعب المصري، وخروجهم عن طاعة الدولة العثمانية، وكأن هدف الحملة جمع المال في المقام الأول، وتحصيل الخراج والضرائب من ولاية مصر، وإن كان جمع المال يدخل في أسباب الحملة؛ لحاجتها للإنفاق على الحرب ضد روسيا، إلا أن إعادة سلطة الدولة في مصر، وتنظيم الأمور المالية، وإدخال الأمراء المتغلبة تحت الطاعة، ومنع اتصالهم بالدول الأجنبية، وإعادة إرسال مخصصات الحرمين الشريفين، وتنظيم أمور الحج؛ كان هو الهدف الأساس الذي أُرسلت من أجله الحملة(١).

أما المصادر العثمانية فكانت أكثر تفصيلًا لهذه الأسباب -وإن اتفقت مع بعضها-، لنظرتها المختلفة للأوضاع في مصر، فانحصرت أسباب الحملة على نهب أمراء المماليك أموال الأهالي والتجار والأغنياء، وفرضهم ضرائب ثقيلة على القرى والمدن، مما يهدد مصالح الناس، وعدم إرسالهم الخزينة الإرسالية للدولة، والمرتبات الميرية، ومرتبات الأسطول العثماني، وبيعهم الغلال المصرية للأجانب(٢)، وكان عدم إرسالهم عوائد الحرمين الشريفين، وعوائد العربان في طريق الحج وأخذها لأنفسهم، وحرمان الحجاج من زيارة المدينة المنورة في حج عام ١١٩٩هـ/ ١٧٨٥م، لتقصيرهم في حماية قافلة الحج المصري، من الأسباب التي أُرسلت من أجلها الحملة(٣).

إلا إن أهم الأسباب الرئيسة التي أُرسلت من أجلها الحملة البحرية على مصر، وبذل الدولة الجهد الكبير في تجهيز المهمات والذخائر الكثيرة للقضاء على المماليك؛ هي تطاول أمراء المماليك على الأجانب المقيمين في مصر بابتزاز أموالهم ومصادرة متاجرهم، وتهديدهم بهدم كنائسهم في مصر، مما دفع ممثلو فرنسا والنمسا وهولندا بتقديم الشكايات إلى الباب العالي. وقد بلغ خروج إبراهيم بك ومراد بك عن طاعة الدولة العثمانية مداه بعقد اتفاقية سرية مع فرنسا من أهم بنودها: تسهيل مرور السفن الفرنسية من السويس – على الرغم من رفض الحكومة

(١) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، ج٢، ط٣، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ١٤٤١هـ/ ٢٠١٩م، ص ١٥٣، ١٥٦، مصطفى الصفوي القلعاوي، مصدر سابق، ص ٢٨٨، إسماعيل بك سرهنك، حقائق الأخبار عن دول البحار، ط١، المطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة ١٣١٦هـ، ج٢، ص ٢٠٧.

(٢) أحمد راسم: رسملى وخريطه لى عثمانلى تاريخى، برنجى طبع، اوجنجى جلد، شمس مطبعه سى، استانبول ١٣٢٩هـ، ١٠٧٤.

(٣) واصف أحمد أفندي: محاسن الآثار وحقائق الأخبار (تاريخ واصف)، مخطوط، مكتبة جامعة إستانبول، رقم ٢٦٧٣، ورق ١٣١.

العثمانية ذلك-، وتوقيع معاهدة تجارية معهم، وسماحهم بالتجارة الفرنسية في مصر بحرية[١]، واتصالهم بروسيا -العدو التقليدي للعثمانيين-، وتعيين مراد بك كاشفاً وعساكرًا على طائفة المستأمنين في الإسكندرية؛ لتحصيل أموال منهم لصالحه دون إذن من الدولة، بما يخالف القوانين المتبعة والاتفاقيات المبرمة بين الدول[٢].

لذا كانت أسباب الحملة في المصادر العثمانية أكثر تفصيلًا ومراعاة للحالة العامة لولاية مصر في ظل الحكم العثماني منها في المصادر العربية، وانفردت بذكر معلومات غير موجودة في المصادر العربية المعاصرة للحملة، مثل: اتفاق الأمراء المماليك مع فرنسا، واتصالهم بروسيا، وبيع الغلال المصرية للأجانب، ورفض إرسال الحلوان[٣] عن أراضي مصر.

أهداف الحملة:

انقسمت الأهداف التي أرادت الدولة العثمانية تطبيقها في حملتها على مصر إلى: أهداف سياسية وأهداف اقتصادية، تمثلت الأهداف السياسية في إعادة سلطة الدولة المفقودة في مصر، وربط مصر بالإدارة المركزية في إستانبول مثلما كانت سابقًا، ومنع ظلم الأمراء المماليك للأهالي المصريين، وحماية مصر من تدخل الدول الأوربية في شؤونها، ومنع اتصال أمراء المماليك بالدول الأوربية أو عقد معاهدات معها دون إذن السلطان العثماني؛ لأن ولاية مصر تابعة إلى الدولة ولا يحق لأمراء المماليك عقد معاهدات دون إذنها، وإظهار قوة الدولة العثمانية – التي اهتزت وتغيرت- في الأوساط العربية والأوربية من جديد، وإظهار أن الدولة العثمانية ما زالت قوية، وليست ضعيفة كما تحاول دول أوروبا وسمها بذلك.

أما عن الأهداف الاقتصادية فتمثلت في تنظيم التشكيلات المالية من جديد داخل الولاية، وإعادة إرسال الخزينة الإرسالية والحلوان إلى الدولة العثمانية سنويًا، وإرسال مرتبات الحرمين الشريفين، ودفع عوائد العربان لعدم تعديهم على الحجاج، وتأمين قافلة الحج المصري، ومنع الأمراء المماليك من نهب أموال المصريين، والاستيلاء على واردات الولاية لصالحهم، وإرسال واردات الجمارك والموانئ المصرية ولوازم الأسطول العثماني إلى الدولة العثمانية.

---

(١) İsmail Hakkı Uzunçarşılı: Osmanlı Tarihi, TTK Yayınları, Ankara ١٩٧٨. c.٥, s. ٥١١.
للمزيد عن نص المعاهدات باللغة العربية يُنظر: عبد الوهاب بكر، مرجع سابق، ص ٢١٩، ٢٢٦

(٢) Ahmed Vâsıf Efendi: Mehâsinü'l-Âsâr ve Hakâikü'l-Ahbâr, haz. Mücteba İlgürel, İstanbul Üniversitesi, Edebiyat Fakültesinin Yayınları, İstanbul ١٩٧٨, s. ٣٤٨.

(٣) الحلوان: هو الثمن الذي يدفع عن طريق المزاد أو المصالحة لشراء حق حيازة المقاطعات الزراعية أو الجمركية التي تخلو بموت أصحابها أو فراغهم عنها، وكانت تدفع في البداية لخزينة مصر، وكان الحلوان الذي يُحَصَّل من مقاطعات الأشخاص المقتولين بأمر الباشا أو المنفيين من مصر لتمردهم ضد السلطان يذهب إلى السلطان، وكانت إيرادات الحلوان في القرن ١٨م من أهم إيرادات السلطان في مصر. وقد دفع إسماعيل بك منافس مراد بك وإبراهيم بك حلوانًا للسلطان قدره ٨٣ مليون بارة نظير تعيين حسن باشا له في مشيخة البلد وتأييده ضد منافسيه عام ١٢٠١هـ/ ١٧٨٧م. يُنظر: ليلى عبد اللطيف أحمد، مرجع سابق، ص ٣٧٣، ٣٧٤.

مجالس الدولة لبحث الشؤون المصرية:

لم تُثن حروب الدولة العثمانية مع أوروبا عن متابعتها للشؤون المصرية بصفة كاملة، لكنها كانت تكتفي بين الحين والآخر بإرسال الأوامر اللازمة مع الإنذار والتحذير بشأن إرسال الخزينة إلى إستانبول والغلال إلى الحرمين، أو إرسال مندوب من طرفها إلى مصر، مثلما أرسلت "عباس أفندي" و"مصطفى أغا" بمأمورية إلى مصر عام ١١٧٤هـ/ ١٧٦٠م لمعرفة نية متغلبة المماليك، وطلب الخزائن المنكسرة، وإرسال ٤٨ ألف إردب من الغلال للحرمين، وهددتهم بإرسال العساكر العثمانية من البر والبحر عليهم إذا لم ينفذوا أوامر الدولة[١].

وإن تحققت بعض مطالب الدولة، وأُرسلت الخزينة على فترات منقطعة، وكذا الغلال إلى الحرمين؛ فإن أمراء المماليك سلكوا طريق العصيان -من جديد- بعد وفاة زعيمهم محمد بك أبو الذهب، فعصوا أوامر الدولة، ولم يرسلوا الخزينة ولا مخصصات الحرمين الشريفين، بل زادوا في ظلم الرعية، وفرضوا الضرائب الباهظة على جميع فئات الشعب دون تمييز، فاكتفت الحكومة العثمانية إزاء تلك الأوضاع بإرسال الأوامر فقط؛ لانشغالها بالحرب مع روسيا والفرس[٢].

زاد اهتمام الحكومة العثمانية بشؤون الولايات العربية ومصر خاصة، بعد انتهاء الحربين: مع روسيا عام ١١٨٧هـ/ ١٧٧٤م، ومع الفرس عام ١١٩٢هـ/ ١٧٧٩م؛ فأرسلت حسن باشا الجزائرلي[٣] إلى الشام للقضاء على عصيان "ظاهر العمر" الذي تمرد ضد الدولة[٤]، ثم عقدت ثلاث مجالس لبحث الشؤون المصرية، والعمل على حلها، على النحو الآتي:

---

[١] مصطفى محمد شوقي زهران: تاريخ واصف محاسن الآثار وحقائق الأخبار، دراسة وترجمة الجزء الأول إلى اللغة العربية، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة الأزهر، كلية اللغات والترجمة، قسم اللغة التركية وآدابها، القاهرة ٢٠١٢م، ص٢٨٦، ٤٤٨.

[٢] جودت باشا: مصدر سابق، ج٢، ص ٢٨٨، أندريه ريمون، الحرفيون والتجار في القاهرة في القرن الثامن عشر، ترجمة: ناصر أحمد إبراهيم وآخر، ج٢، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٥، ص ١٠٦٠.

[٣] حسن باشا الغازي المعروف بـ "بالابيق" (أبو الشوارب)، وُلد سنة ١١٢٤هـ/ ١٧١٠م، يرجع أصله إلى بلاد القفقاس، حاز لقب غازي، ورُقِّي إلى رتبة "قبطان باشا"، ثم "سرعسكر"(قائد جيش) على كوتاهية ثم على روسجق، وعُين محافظًا على المورة، وأدخل الأرناؤوط في المورة تحت طاعة الدولة عام ١١٩٣هـ/ ١٧٧٩م، فمنحته الدولة ولاية المورة في نوفمبر ١١٩٣هـ/ ١٧٧٩م كإقطاع (محصلية) خاص به. وبعد وفاة السلطان عبد الحميد الأول عينه السلطان سليم الثالث (١٢٠٤-١٢٢٢هـ/ ١٧٩٠- ١٨٠٧م) واليًا على الأناضول عام ١١٩٣هـ/ ١٧٨٩م، ثم عُين صدرًا أعظم في العام نفسه. تُوفي حسن باشا في "شُمْنَى" عن عمر ثمانين عامًا في ١٤ رجب ١٢٠٤هـ/ ٣٠ مارس ١٧٩٠م، ودُفن في "تكية بكتاشي". انظر: شمس الدين سامي: قاموس الاعلام، استانبول، مهران مطبعه سى، ١٣٠٦هـ، ج٣، ص ١٨٠١، محمد ثريا: سجل عثمانى ياخود تذكرهء مشاهير عثمانيه، مطبعهء عامره، ١٣٠٨هـ، ج٢، ص ١٥٩.

[٤] كلفت الدولة العثمانية حسن باشا الجزائرلي بالقضاء على عصيان ظاهر العمر في سوريا عام ١٧٧٤م، فأعاد السلطنة العثمانية في سوريا من جديد، ونجح في القضاء على ظاهر العمر وقتله عام ١٧٧٦م. يُنظر: عبد الرحمن شرف: تاريخ دولت عثمانيه، جلد ٢، قره بت مطبعه سى، إستانبول ١٣١٢هـ، ص ١٩٩. Necmi Ülker: XVIII. Yüzyılda Mısır ve Cezayirli Gazi Hasan Paşa'nın Mısır Seferi, Tarih İncelemeleri Dergisi, Cilt ٩, Sayı ١, ١٩٩٤, s.١١.

المجلس الأول: عُقد في منزل شيخ الإسلام "دري زاده محمد عطاء الله أفندي"[١] بتاريخ ١٠ صفر ١١٩٩هـ/ ٢٣ ديسمبر ١٧٨٤م، برئاسة الصدر الأعظم خليل حميد باشا[٢]، وقاضِيَي عسكر: الروملي والأناضول، وكبار رجال الدولة؛ لبحث قضية إعادة الأمن والأمان في ولاية مصر، وقرروا فيه تعيين: "يكن محمد باشا"[٣] واليًا على مصر بناء على رغبة المماليك –الذين عزلوا سلحدار محمد باشا–؛ لعدم رغبتهم فيه[٤]. وقد تضاربت آراء المصادر العربية والعثمانية حول عزل سلحدار محمد باشا وتعيين يكن محمد باشا، حيث ذكرت المصادر العربية أن مراد بك في سنة ١١٩٩هـ/ ١٧٨٤م عزل والي مصر سلحدار محمد باشا، وتولى هو قائمقام، وطلب من الدولة إرسال والٍ جديد[٥]. بينما ذكر واصف أفندي في تاريخه أن مراد بك أرسل بعد عزل سلحدار محمد باشا[٦]، نجم الدين أفندي إلى إستانبول، وأعلن خضوعه للدولة، وطلب تعيين وزيرًا قويّ الشكيمة، وإرساله برًا إلى مصر[٧].

أرادت الحكومة العثمانية في هذه الفترة حل القضية المصرية بطريقة سلمية، ولكن الأزمة المالية التي مرت بها، وعدم قدرتها على إرسال حملة في ذلك الوقت جعلها تعترف بإبراهيم بك قائمقامًا وشيخًا للبلد لحين وصول الوالي الجديد. أدى نهب أمراء المماليك ورادات الدولة في مصر، وعدم إرسال عوائد العربان للحفاظ على أمن الحج والحجاج، وتحميلها هذه العوائد ونفقات الحج، وتراكم الديون المستحقة للدولة عليهم، ومنعهم إرسال الحلوان الذي كانت قيمته مرتفعة في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي[٨] إلى أن يعقد الباب العالي مجلسًا ثانيًا لبحث الشؤون المصرية من جديد، وحل القضية من جذورها.

المجلس الثاني: عُقد في منزل الكتخدا بك بالباب العالي بتاريخ ٢٦ رجب ١١٩٩هـ/ ١٠ يونية ١٧٨٥م، وقرر المجلس: تأديب أمراء المماليك؛ لعدم إرسالهم مخصصات الحرمين

---

[١] دُرّي زاده عطاء الله محمد أفندي: هو ابن شيخ الإسلام مصطفى أفندي، ولد عام ١١٤٢هـ، وعين قاضيًا على إستانبول عام ١١٨٣هـ/ ١٧٧٠م، ونال مشيخة الإسلام في ١٧ جمادى الآخرة عام ١١٩٧هـ/١٧٨٣م وعزل منها في ١٨ جمادى الآخرة سنة ١١٩٨هـ/ ١٧٨٤م، وتوفي في ٦ رجب ١١٩٩هـ/١٧٨٥م. يُنظر: محمد ثريا: سجل عثمانى ياخود تذكرهء مشاهير عثمانيه، جلد ٣، مطبعهء عامره، ١٣٠٨هـ، ص ٤٧٦، ٤٧٧.

[٢] خليل حميد باشا: عُين في الصدارة العظمى في يوم الإثنين ٢٥ محرم ١١٩٧هـ/١٧٨٣م، وعمل فيها حتى ٢٠ جمادى الأولى ١١٩٩هـ/١٧٨٥م، وتوفي بعد ٢٧ يوم من عزله من الصدارة. يُنظر: أحمد جاويد: حديقة الوزراء ذيلى، ورد مطرّى، إستانبول ١٢٧١هـ، ص٣٤، ٣٥.

[٣] يكن محمد باشا أو الشريف محمد باشا: عين واليًا على مصر في الفترة من محرم ١٢٠٠هـ/١٧٨٦م إلى محرم ١٢٠١هـ. القلعاوي، مصدر سابق، ص ٢٨٤.

[٤] جودت باشا: مصدر سابق، ج٢، ص ٢٩٤.

[٥] الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص١١٩.

[٦] سلحدار محمد باشا: تولى مصر في ١٠ صفر ١١٩٩هـ/ ٢٣ ديسمبر ١٧٨٤م، وعُزل منها لتراخيه في إدارتها. تُوفي سنة ١٢٠٢هـ/ ١٧٨٨م. يُنظر: محمد ثريا: مرجع سابق، ج٤، ص ٢٦٤.

[٧] واصف أحمد أفندي: محاسن الآثار وحقائق الأخبار (تاريخ واصف)، مخطوط، مكتبة جامعة إستانبول، رقم ٢٦٧٣، ورق ١٣١أ، جودت باشا، مصدر سابق، ج٢، ص٢٩٢. وقد فسر إسماعيل حقي أوزون جارشلي في تاريخه عزل مراد بك لسلحدار محمد باشا على أنه كان واليًا لخصمه إبراهيم بك، لهذا عزله وطلب تعيين والي جديد. يُنظر: İsmail Hakkı Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, TTK Yayınları, Ankara ١٩٧٨. c.٥, s. ٥١٠.

[٨] أندريه ريمون: مرجع سابق، ج٢، ص ١٠٦١.

وعوائد العربان، مما حرموا الحجاج من زيارة المدينة المنورة؛ لطمع أمير الحج في أموال العربان[١]. لذا انتظرت الحكومة العثمانية الوقت المناسب لإرسال الحملة، بعد محاولتها أولًا التوصل إلى حل سلمي قبل التدخل العسكري.

المجلس الثالث: بتاريخ ٦ شعبان ١١٩٩هـ/ ١٤ – ١٥ يونية ١٧٨٥م، حضره الصدر الأعظم –الجديد– شاهين علي باشا[٢]، وقاضيا العسكر، وكبار رجال الدولة، وكان مما قرروه –بعد الاستماع لنصائح نقيب الأشراف "دري زاده محمد عارف أفندي"–: ضرورة تعيين واليًا قويًّا على مصر، وتعيين محافظًا على الإسكندرية برتبة وزير، وتعيين محافظًا على دمياط؛ ليتحقق النظام في الولاية[٣]، وتحدث في هذا المجلس الدفتردار "سليمان فيضي أفندي"، الذي ذهب إلى مصر من قبل؛ لتنظيم الغلال وأموال الكيلار العامرة[٤] والإرسالية التي لم يرسلها المماليك منذ فترة عن ضرورة القضاء على عصاة المماليك وإعادة النظام إلى ولاية مصر[٥].

بعد إدراك الحكومة العثمانية عدم جدوى التهديد، قررت وضع حدٍّ لهذه الأوضاع، ورأت أن الحل الوحيد: إرسال حملتين بحرية وبرية ضد المماليك في مصر؛ لتأديبهم وكسر شوكتهم، وإعادة سلطة الدولة المفقودة وهيبتها في الولاية، لذا استقر رأي مجلس الدولة في اجتماعه الأخير على إرسال حسن باشا الجزائرلي بحملة بحرية على مصر في العام الموالي، وتكليف عابدي باشا[٦] بالخروج بحملة برية من الشام لمساعدة حسن باشا في القضاء على عصاة المماليك.

طلبت الحكومة العثمانية –قبل إرسال الحملة البحرية إلى مصر– من أحمد باشا الجزار[٧] إعداد تقريرٍ عن أوضاع الولاية المصرية وأحوالها، وعن الطُرق الواجب اتباعها لإخضاع عصاة المماليك، وإعادة ولاية مصر إلى سلطة الدولة[٨].

---

(١) جودت باشا: مصدر سابق، ج٢، ص ٢٩٥.

(٢) شاهين علي باشا: عُين في الصدارة العظمى في ٢٠ جمادى الأولى ١١٩٩هـ/ ١٧٨٥م، وتوفي في ١٩ رمضان ١٢٠٣هـ/ ١٢٠٣هـ/ ١٧٨٩م. يُنظر: محمد ثريا: مرجع سابق، ج٣، ص ١٣٥.

(٣) واصف أحمد أفندي: مصدر سابق، ورق ١٣١ أ.

(٤) كيلار عامره kilar-i Amire: الاسمُ الذي أُطلق على المكان الذي تُخزّن فيه الأشياءُ الخاصّة بمأكولاتِ أفراد القصر العثماني، وعلى رأسِهم السّلطانُ، حتّى يتمّ صرفُها وتوزيعها، وبدأت في عصر يلدرم بايزيد، ولكن اكتسبت أهمية كبيرة في عصر سليم الأول وسليمان القانوني. يُنظر: Mehmet Zeki Pakalın, Osmanlı Tarih Deyimleri ve Terimleri Sözlüğü, Milli Eğütüm Bakanlığı Yayınları, İstanbul ١٩٩٣, c.٢, s.٢٨١.

(٥) زار سليمان فيضي أفندي مصر سنة ١٧٨٠م ورأى الأمراء المماليك عن قرب، وذكر في تقريره أن الأمراء المماليك يحكمون في مصر باستقلالية، ولم يعبأوا بأوامر الحكومة العثمانية، وقطعوا علاقاتهم بها، وذكر كذلك أن إصلاح مصر لن يتم بالحلول الدبلوماسية، ويجب تجريد حملة ضد المماليك من البر والبحر، واستخدام القوة والسيف ضدهم لتحقيق النظام في مصر. يُنظر: واصف أحمد أفندي، مصدر سابق، ورق ١٣١ أ.

(٦) عابدي باشا (ككي): أمير أمراء عمل واليًا على أضنة سنة ١١٩٤هـ/ ١٧٨٠م، ونال الوزارة وعُين واليًا على ديار بكر سنة ١١٩٦هـ/ ١٧٨٢م، ثم على حلب والرقة سنة ١١٩٨هـ/ ١٧٨٤م، وفي سنة ١٢٠١هـ/ ١٧٨٧م عُين واليًا على مصر، ثم عُزل منها في سنة ١٢٠٣هـ/ ١٧٨٩م. تُوفي في حلب سنة ١٢٠٣هـ/ ١٧٨٩م. يُنظر: محمد ثريا، مرجع سابق، ج٤، ص٤١١.

(٧) كان أحمد باشا الجزار من أتباع علي بك الكبير بينما إبراهيم بك ومراد بك من أتباع محمد بك أبي الذهب، لذلك فالعداء بينهما بينهما طبيعي. يُنظر: عبد الوهاب بكر: مرجع سابق، ص ١٢٠، ١٢١.

(٨) واصف أحمد أفندي: مصدر سابق، ورق ١٣١ أ، جودت باشا: مصدر سابق، ج٢، ص ٢٩٥، عبد الوهاب بكر: مرجع سابق، ص ١١٥. Stanford J. Shaw, The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt, ١٥١٧-١٧٩٨, Princeton ١٩٦٢, s. ٣٠٠.

ويظهر من اختيار الحكومة العثمانية لأحمد باشا الجزار كامل ثقتها به في تلك الفترة؛ فقد أبلى بلاء حسنًا، وساعد حسن باشا الجزائرلي في القضاء على "ظاهر العمر" عام ١١٨٩هـ/ ١٧٧٥م، فمنحته الدولة لقب "حامي الساحل السوري"، وتركت له مهمة تثبيت الأمن في بلاد الشام، بخلاف أنه عاش فترة طويلة في مصر، وعرف جيدًا طبائع المماليك، كما كانت لديه رغبة في حكم مصر بعد هروبه منها، ورغبة في القضاء على منافسَيْهِ: إبراهيم بك ومراد بك؛ فكان هو الشخص الوحيد القادر على تقديم النصح للدولة بشأن تأديب متغلبة المماليك، والقضاء عليهم.

أرسل أحمد باشا الجزار تقريره إلى الدولة في نهاية رمضان سنة ١١٩٩هـ/ منتصف يوليو ١٧٨٥م، أي قبل إرسال الحملة بعشرة أشهر على الأقل، وأكدّ في تقريره أن المصريين سيرحبون بالحملة العسكرية ويدعمونها؛ بغية الخلاص من قمع المماليك لهم، كما سيبدي العلماء تعاونهم مع قائد الحملة، وسيبذلون كل ما في وسعهم من أجل هزيمة هؤلاء الطغاة، والقضاء عليهم نهائيًا، كما ذكر أن مشايخ الأزهر قد أصابهم الضرر والأذى من أعمال العنف والابتزاز، مما جعلهم يضمرون الكراهية للمماليك، وأن الوقت قد حان للتدخل العثماني في مصر في ظل تراجع شعبية الأمراء، وكثرة اختلافهم وانقسامهم على أنفسهم(١).

اهتمت الحكومة العثمانية بتقرير الجزار اهتمامًا بالغًا؛ لا سيما وقد وضّح فيه باستفاضة كيفية السيطرة على الوضع في مصر، وتأسيس سلطة منتظمة للدولة عن طريق استقطاب فئات المجتمع للوقوف مع حسن باشا ضد المماليك، واستمالة مشايخ العربان بالهدايا والمنح، وإلغاء الضرائب التي أثقلت كاهل الرعايا، ومن ثم التمكن من القضاء على المماليك، وإعادة سلطة الدولة في مصر(٢). وإن كان الجزار يهدف من تقريره هذا إلى تعيينه هو على رأس الحملة المزمع إرسالها كما يتضح من كلامه في التقرير(٣)، فإن الحكومة العثمانية كانت تخشى سلطته المتزايدة، وتخاف من عدم قدرتها على إخراجه منها بعد دخوله فيها، كما خافت مما فعله علي بك من قبل، ويحاول أن يستأثر بولاية مصر ويفصلها عن الدولة العثمانية؛ لذا صرفت نظرها عن تعيينه واليًا على مصر وتكليفه بالحملة، وأسندت أمر الحملة إلى حسن باشا الجزائرلي(٤).

---

(١) أندريه ريمون: مرجع سابق، ج٢، ص ١٠٦١.

(٢) للاطلاع على النسخة العثمانية من التقرير يُنظر: Stanford J. Shaw: Ottoman Egypt in the Eighteenth Century Te Nizâmnâme-i Mısır of Cezzâr Ahmed Pasha, Massachusetts ١٩٦٤; وللنسخة العربية يُنظر: عبد الوهاب بكر، مرجع سابق، ص ١٥٩- ٢٠٩.

(٣) من بين الإشارات التي تدل على رغبة الجزار في قيادة الحملة: *"من الضروري أن يكون قائد الحملة قد ذهب إلى مصر وأقام هناك لسنوات عديدة"*، *" وأن يكون فطنًا لطبيعة وتكوين كل طبقة من طبقات أهل مصر"*، فهذه المواصفات لا تنطبق إلا على أحمد باشا الجزار نفسه، فهذا التقرير هو دعوة مستترة إلى الدولة لتسليمه أمور ولاية مصر. يُنظر: عبد الوهاب بكر: مرجع سابق، ص ١٢٣- ١٢٤.

(٤) İsmail hakkı uzunçarşlı: a.g.e, cilt ٥, s. ٥١١.

وقبل إرسال الحملة أرسلت الحكومة العثمانية في ١٠ رجب ١٢٠٠هـ/ ٩ مايو ١٧٨٦م مباشرًا[١] من طرفها إلى مماليك مصر بطلب الخزائن المنكسرة، وإرسال مرتبات الحرمين الشريفين من الغلال والأموال، وهددتهم باتخاذ إجراءات قاسية إذا لم يتم تدبير ذلك في مهلة أقصاها ثلاثين يومًا[٢]. وذكر الجبرتي وصول رسول آخر في يوم السبت ٥ رمضان ١٢٠٠هـ/ ٢ يوليه ١٧٨٦م، وشدد على المطلوبات السابقة، فوقع أمراء المماليك في قلق واضطراب[٣].

المبحث الثاني

تجهيز الحملة وإرسالها

بعد أن قرر أركان الدولة في آخر جلسة لهم -بتاريخ ٦ شعبان ١١٩٩هـ/ ١٤ يونيه ١٧٨٥م-: إعادة الأمن إلى ولاية مصر، والقضاء على متغلبة المماليك، وإعادة النظام فيها، بدأت التجهيزات البحرية؛ حيث جهزت الدولة ضعف مقدار السفن التي كانت في السنين الماضية، وأكملت المهمات واللوازم البحرية وعساكر اللوند[٤]، ومنحت حسن باشا الجزائرلي كامل التصرف في مأموريته، فسلّمت له مقاليد أمور هذه النواحي جميعًا[٥].

ولكي تساعده في مأموريته أرسلت الحكومة العثمانية عدة فرمانات إلى: والي الرقة عابدي باشا بالذهاب على رأس جيش من الفرسان والمشاة إلى مصر، والتخابر مع القبطان باشا في تنظيم الأمور المصرية[٦]، وأرسلت -كذلك- إلى متصرف إشقودرة[٧] محمود باشا باللحاق بالأسطول الهمايوني بألف جندي من المشاة[٨]، وإلى شيخ البلد السابق في مصر إسماعيل بك ورفيقه حسن بك الجداوي – أتباع المحمدية- تخبرهما بالوقوف مع حسن باشا ضد عصاة

---

[١] كان المباشر هو خلوصي أحمد أفندي أُرسل إلى مصر لطلب الخزائن المنكسرة من المماليك. جودت باشا: مصدر سابق، ج٢، ص ٢٩٥،

[٢] وقد ذكر الجبرتي في حوادث ١٠ رجب ١٢٠٠هـ/ ٩ مايو ١٧٨٦م:" ورد ططرى من البر وقابجى من البحر ومعهما مكاتبات قرئت بالديوان يوم الخميس ثاني عشره، مضمونها طلب الخزائن المنكسرة وتشهيل مرتبات الحرمين من الغلال والصرر في السنين الماضية واللوم على عدم زيارة المدينة، وفيه الحث والوعد والوعيد والامر بصرف العلوفات وغلال الأنبار، وفيه المهلة ثلاثون يومًا". الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص ١٥٣.

[٣] الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص ١٥٣.

[٤] عساكر اللوند: نوع من العساكر الخفيفة تعمل في البر والبحر، وغالبًا ما تعمل في الأسطول العثماني. يُنظر: صالح سعداوي: مصطلحات التاريخ العثماني معجم موسوعي مصور، دارة الملك عبد العزيز، الرياض ١٤٣٧هـ، ج٣، ص ١٢٠١-١٢٠٢.

[٥] واصف أفندي: مصدر سابق، ورق ١٣١أ.

[٦] الأرشيف العثماني: دفتر مهمة مصر رقم ١٠، حكم ١١٠/ ص٥٤ أواخر جمادى الآخرة ١٢٠٠هـ، حكم ١١٧/ ص٥٨ التاريخ نفسه.

[٧] إشقودرة: مدينة في ألبانيا العليا، وهي مركز اللواء نفسه، في ولاية الروم إيلي. س. موستراس: المعجم الجغرافي، ص ٧٣. ٧٣.

[٨] جودت باشا: مصدر سابق، ج٢، ص ٣٠١.

مجلة كلية الآداب بالوادي الجديد- مجلة علمية محكمة- ديسمبر ٢٠٢٣

المماليك[١]، كما أرسلت فرماناً بالعربية إلى درويش همام وأولاد وافي وعربان الهنادي وأقاربهم بالوقوف مع حسن باشا في القضاء على متغلبة المماليك[٢]. وهكذا قررت الحكومة العثمانية إرسال حملة بحرية وبرية في الوقت نفسه للقضاء على المماليك نهائيًا، وإعادة الولاية إلى سلطة الدولة العثمانية.

كما أرسلت في الوقت ذاته إلى والي الشام أحمد باشا الجزار تطلب منه إرسال أموال من مقاطعات "غزة ورملة وجمرك يافا وتوابعه"، وشراء جمال وبغال أو استئجارها، وتوفير الذخائر اللازمة لعابدي باشا، والتعاون مع حسن باشا في مأموريته[٣]، وأرسلت إلى متسلم غزة درويش حسن بالذهاب مع عساكره من البر إلى مصر[٤]، وبهذا مهدت الدولة الطريق اللازم لحسن باشا في مأموريته، من أجل تسهيل مهمة القضاء على المماليك قضاءً نهائيًّا.

قبل وصول حسن باشا إلى مصر أرسلت الحكومة العثمانية خطابات استمالة إلى والي مصر "يكن محمد باشا"، وإلى قاضي مصر، وإلى علماءها، وإلى أمراء مصر –غير التابعين للطغاة–، وإلى السادات البكرية وإلى مفتيّ المذاهب الأربعة ووجوه البلد وأعيانها، للوقوف مع الحملة وتأييدها، وعدم مساعدة المماليك في ظلمهم، وتأمين البلاد، وحماية الفقراء، وإرسال مهمات الحرمين[٥]. فأرادت بهذا جذب الشعب إلى جانبها، وحثه على الثورة ضد المماليك من داخل مصر؛ ليتمكن حسن باشا من القضاء على المماليك داخليًا وخارجيًا، استنادًا إلى ما جاء في تقرير الجزار باشا المذكور آنفًا.

وفي ١٨ جمادى الآخرة ١٢٠٠هـ/ ٧ مايو ١٧٨٦م تحرك القبطان باشا –حسن باشا الجزائرلي– من إستانبول بالأسطول الهمايوني المكون من ٢٠ سفينة من نوع قاليون[٦]، و ٥٦ سفينة من نوع جامليجه[٧]، ومدافع وجبخانه[٨] ومهمات وعساكر أرناؤوط[٩]، فوصلت مقدمة الأسطول إلى الإسكندرية في أوائل رجب ١٢٠٠هـ/ ٢٠ مايو ١٧٨٦م. وهكذا سار حسن باشا من طريق البحر ولم يأتِ من طريق البر كما اقترح الجزار في تقريره.

---

[١] الأرشيف العثماني: دفتر مهمة مصر رقم ١٠، حكم ١٠٣/ ص٥١ أوائل جمادى الأولى ١٢٠٠هـ.
[٢] الأرشيف العثماني: دفتر مهمة مصر رقم ١٠، حكم ١٠٧/ ص٥٣ أواسط جمادى الأولى ١٢٠٠هـ.
[٣] الأرشيف العثماني: دفتر مهمة مصر رقم ١٠، حكم ١١٩/ ص٥٩ أوائل ذي الحجة ١٢٠٠هـ.
[٤] الأرشيف العثماني: دفتر مهمة مصر رقم ١٠، حكم ١٠٣/ص٥١، أوائل جمادى الأولى ١٢٠٠هـ، حكم ١١٧/ ص٥٨، أواخر جمادى الآخرة ١٢٠٠هـ.
[٥] الأرشيف العثماني: دفتر مهمة مصر رقم ١٠، حكم ١٢١/ ص ٦٠-٦١، أوائل رجب ١٢٠٠هـ.
[٦] قاليون أو قليون: وترد في المصادر أيضًا غاليون أو غاليون، نوع من المراكب عالي الأطراف، وهو مركب حربي كبير مستخدم في الأساطيل العثمانية والأوربية في البحر الأبيض المتوسط. درويش النخيلي: السفن الإسلامية على حروف المعجم، جامعة الإسكندرية ١٩٧٤م، ص ١١٢-١١٣.
[٧] چامليجه: نوع من السفن التركية القديمة. يُنظر: Mehmet Zeki Pakalın, a.g.e, c.١, s. ٣٢٤.
[٨] جبخانه: مكان تودع فيه الأسلحة والذخيرة، وتُطلق في تاريخ الجبرتي على الذخيرة. أحمد السعيد سليمان، تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩م، ص ٦٥-٦٦.
[٩] الأرشيف العثماني: دفتر مهمة مصر رقم ١٠، حكم ١١٩/ ص٥٩ أوائل ذي الحجة ١٢٠٠هـ.

وعن خبر وصول طلائع سفن الحملة إلى الإسكندرية قال الجبرتي:" في أوائل رجب وصلت سفينة "بكلك"[١] إلى ميناء الإسكندرية، وبعدها جاءت سفينة "قاليون"، وأحضرت والي جُدَّة أحمد باشا، ثم جاءت سفينة "بكلك" أخرى مليئة بالذخائر ووصلت الميناء، وبدأوا في عمل البقسماط، وكثرت الحوادث في مصر والقيل والقال[٢].

لم يتوقع أمراء المماليك إرسال حملة بحرية ضدهم؛ لمعرفتهم مدى انشغال الدولة العثمانية بالحروب مع أوروبا، لذا كانوا يرفضون أوامر الدولة المرسلة إليهم، وزادوا في الظلم والطغيان، لكن عندما علموا –يقينًا– بوصول الأسطول العثماني بقيادة حسن باشا الجزائرلي إلى الإسكندرية أُسقط في أيديهم، وبدأوا يبحثون عن حلٍّ[٣].

عند وصول أغا من إستانبول بشأن التشديد على مطالب الدولة قبل وصول حملة حسن باشا، ذهب أمراء المماليك إلى والي مصر في القلعة، وتحدثوا معه كثيرًا، وكان حديثهم في البداية فيه غلظة؛ إذ قال مراد بك للوالي: *ليس لكم عندنا إلا حساب، أمهلونا إلى بعد رمضان، وحاسبِنا على جميع ما هو في طرفنا نورده، وأَرسِل إلى من وصل إلى الإسكندرية يرجعون إلى حيث كانوا، وإلا فلا نُشَهِّل حجًّا ولا صرَّةً، ولا ندفع شيئًا، وهذا آخر الكلام*"[٤]. يتبين من ذلك أن المماليك ما زالوا على عنادهم وطغيانهم، ولم يدركوا بعد جاهزية الحملة وجديتها في القضاء عليهم.

بعد ذلك اتفق إبراهيم بك ومراد بك على كتابة عرضحال (عريضة) وإرسالها مع الوجاقلية[٥] والمشايخ إلى حسن باشا، ذكروا فيها أنهم تابوا ورجعوا وأقلعوا عن الظلم ومخالفة أوامر الدولة، وقرروا إرسال أموالٍ إلى القبطان باشا والوزير وباشا جُدَّة قدرها ٣٥٠ كيسًا، وشرعوا في كتابة عرائض أخرى؛ أحدها للدولة والقبطان باشا، والأخرى لباشا جُدَّة الموجود في الإسكندرية[٦]، لكن حسن باشا منع إرسالها إلى الدولة، لأنه كان مُفوَّضًا من السلطان باتخاذ التدابير في الأمور المصرية كافة. وكان هدف إبراهيم بك ومراد بك من ذلك كسب مزيد وقت لاستكمال تجهيزاتهم العسكرية، ومواجهة الحملة المرسلة عليهم من طرف الدولة العثمانية، ولم يكن في نيتهم الصلح، أو إرسال مخصصات الدولة من خزينة إرسالية وغيرها، أو مخصصات الحرمين من الغلال والصُرَر.

---

[١] بكلك أو بيليك: نوع من السفن الحربية التي كانت تُستعمل حتى عصر محمد علي باشا. درويش النخيلي: مرجع سابق، ص ١٨.
[٢] الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص ١٥٣، جودت باشا: مصدر سابق، ج٢، ص ٣٠٢، ٣٠٣.
[٣] الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص ١٥٣
[٤] الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص ١٥٦.
[٥] وجاقلية أو أوجاقلية: كلمة تركية تعني نوع من أنواع الجند، وكان عدد الأوجاقات العثمانية في مصر سبع أوجاقات لذلك عرفوا بالأوجاقات السبعة. يُنظر: أحمد السعيد سليمان: مرجع سابق، ص ١٩٤، ١٩٦.
[٦] الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص١٥٦.

وبينما كان أمراء المماليك يسعون في الظاهر إلى الاتفاق مع الدولة وإعلان طاعتهم لها، أخذوا يستعدون للمواجهة الحربية في خفاء[١]؛ فركب "سليمان أغا مستحفظان"، ونادى في الأسواق على عساكر الروم والقليونجية[٢] والأتراك بإخراجهم من مصر، وإرسالهم إلى بلادهم، وأخبر بقتل كل من يوجد منهم بعد ثلاثة أيام[٣]، واتفق رأي مراد بك وإبراهيم بك على إرسال "لاچين بك" و"مصطفى السلحدار" إلى مدينة رشيد للحفاظ عليها والاتفاق مع عرب الهنادي، كما طلبوا إرسال والي جُدَّة إلى وظيفته[٤]. وهذا دليل ظاهر على دور العربان الكبير في ترجيح ترجيح كفة الحرب وتحقيق النصر لمن يستميلهم إليه.

أدركت الحكومة العثمانية هذه المسألة مبكرًا –تأثير العربان– من تقرير الجزار باشا؛ فسبقت المماليك إلى الاتفاق مع عرب الهنادي؛ فقد ذهب مشايخ عرب الهنادي والبحيرة إلى الإسكندرية بناءً على رسالة الحكومة العثمانية لهم من قبل، وقابلوا أحمد باشا والي جُدَّة، فألبسهم خِلعًا، وأجزل لهم العطاء من أجل الوقوف إلى جانب الدولة ضد أمراء المماليك[٥]. وبهذا استمال حسن باشا الفئات المختلفة للوقوف معه ضد عصاة المماليك، طلبًا لإنجاح حملته.

وقد وصف الجبرتي صنيعه هذا بالخداع والتحايل لجذب القلوب[٦]، وذكر واصف أفندي أن الهدف من جذب مشايخ العربان إلى جانب الدولة: إنما هو تأمين الفقراء والأهالي في مصر، وإبعاد متغلبة المماليك عن القاهرة، ومحاولة كسبهم لصالح الدولة، والاتفاق معهم في محاربة المماليك، وإعطاء أهمية لدور العربان في تأمين الوضع داخل البلاد[٧]، فالتواصل مع العُربَان يعد من قبيل الحنكة السياسية التي اقتضتها الأحوال، لكن عندما توطَّد الأمن في القاهرة، وطُرِدَ المماليك منها إلى الصعيد: قلَّص سلطة مشايخ العربان، ومنح بعض الصلاحيات التي كانت ممنوحة لهم من قبل إلى أوجاق الإنكشارية؛ لخلق توازن في القوى داخل القاهرة، وإعادة السلطة المفقودة لعساكر الدولة في مصر.

المرحلة الأولى من حملة حسن باشا الجزائرلي:

وصل حسن باشا الجزائرلي مع بقية الأسطول الهمايوني إلى الإسكندرية في يوم الخميس ١٧ رمضان ١٢٠٠هـ/ ١٤ يوليه ١٧٨٦م، فزاد قلق أمراء المماليك واضطرابهم[٨]، فأرسلوا في اليوم الثاني مباشرة (١٨رمضان) وفدًا من المشايخ: الشيخ أحمد العروسي والشيخ

---

[١] إسماعيل الخشاب: مسالك التبيان في أخبار الأمراء وتراجم الأعيان، مخطوط، نسخة مكتبة الدولة ببرلين تحت رقم ٢٨٥ Landberg، ورق ٨٤ب.

[٢] قليونجية أو قاليونجية: عساكر البحرية الذين يعملون في سفن القاليون. أحمد السعيد سليمان: مرجع سابق، ص ١٧١.

[٣] Ahmed Vâsıf Efendi, a.g.e. S.٣٥٦.

[٤] الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص ١٥٦.

[٥] جودت باشا: مصدر سابق، ج٢، ص ٣٠٣.

[٦] الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص ١٥٩.

[٧] واصف أفندي: مصدر سابق، ورق ١٣٢.

[٨] الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص ١٥٧. وذكر واصف أفندي أن حسن باشا وصل الإسكندرية في ١٠ رمضان ١٢٠٠هـ. يُنظر: Ahmed Vâsıf Efendi, a.g.e, s. ٣٥٦.

محمد الأمير والشيخ محمد الحريري، ومن الوجاقلية: إسماعيل أفندي الخلوتي وإبراهيم أغا الورداني، وسليمان بك الشابوري، ومعهم هدايا مكونة من: ١٠٠ فرق بُنّ و١٠٠ قنطار سكر، وعشر بقج ثياب هندية وتفاصيل وعودًا وعنبرًا وغير ذلك، للشفاعة لهم عند حسن باشا، وأنهم تابوا وأنابوا وسيرجعون عما سلف، وذكَّروهم بحال الرعية من الفتن والضرر الذي سيقع عليهم[١]. يتبين من ذلك سعاية أمراء المماليك إلى استمالة حسن باشا الجزائرلي، والدخول معه في مفاوضات من أجل الصلح، وإعلان طاعتهم للدولة، وإدراكهم أثر علماء الأزهر الشريف القوي في الوساطة بينهم وبين حسن باشا.

تخوَّف أمراء المماليك كثيرًا من تمرد الناس ضدهم أو حدوث حركات عصيان؛ ففي الوقت الذي كان فيه مراد بك يستعد لمواجهة حسن باشا في رشيد، زار إبراهيم بك الشيخ البكري في القاهرة وعيِّد عليه، ثم زار الشيخ العروسي، والشيخ الدردير -على غير عادته-، وتواضع لهم كثيرًا، وأوصاهم بالحفاظ على ولاية مصر، وكف الناس عن العصيان والتمرد، أو الوقوف بجانب الدولة العثمانية ضدهم[٢]. ويتبين مما سبق تغير موقف أمراء المماليك الأول من من الاستهانة بالحملة، وجنحوا إلى استمالة المشايخ والعامة، والدخول في مفاوضات إعلان الطاعة للدولة.

منذ وصول حسن باشا إلى رشيد شرع في استقطاب الرعية إلى جانب الدولة العثمانية، فأجرى بعض الإصلاحات المهمة في هذا الشأن، حيث ألغى الضرائب التي كانت مفروضة عليهم، وأعرب عن استعداده التام للقضاء على المماليك، وتخليص الولاية من ظلمهم، وأكدّ للوفد القادم إليه من القاهرة بأن السلطان عبد الحميد الأول أوصاه بالرعية خيرًا، وسعى جاهدًا في تأليب المشايخ ضد الأمراء، وأعطاهم بيانًا لقراءته في الجامع الأزهر، لكنهم اعتذروا عن ذلك خوفًا من أمراء المماليك[٣].

حاول إبراهيم بك استرضاء حسن باشا بالرُسُل والهدايا وإظهار الخضوع للدولة، ولكن فور علمه بإرسال الدولة فرمانات إلى المشايخ للوقوف مع الدولة ضدهم، أراد السيطرة على القلعة بعد هزيمة المماليك الأولى، لكنه فشل في الاستيلاء عليها، نظرًا لتحصين والي مصر القلعة، ودعوة المشايخ للوقوف بجانبه لحمايتها، وأرسل والي مصر رسالة إلى القبطان باشا بسرعة المجيء إلى القاهرة بعد هجوم المماليك على القلعة[٤].

---

[١] الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص١٥٨.
[٢] الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص ١٦٣. جودت باشا، مصدر سابق، ج٢، ص ٣٠٧.
[٣] الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص ١٦١.
[٤] الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص ١٦١.

على الجانب الآخر كان "لاچين بك"[١] المُرسل من طرف المماليك إلى رشيد قد فرض على الأهالي الكلف والضرائب، وقام بحرق قرية "وردان"[٢]، فمالت الناس إلى حسن باشا، وشكوا له صنيع المماليك؛ فطيَّب القبطان باشا خواطرهم، وكتب لهم فرمانًا برفع الخراج عنهم لمدة سنتين[٣]. وكان حسن باشا في ذلك ممتثلًا لأوامر السلطان برفع الظلم عن الأهالي، وتوطيد الأمن في مصر، وإعادة العمل بقانون السلطان سليمان القانوني[٤]، نظرًا لضجر الأهالي من ظلم المماليك وتعديهم عليهم، فوجدوا الخلاص في القبطان باشا ممثل السلطان، فمالوا إليه.

المعركة الأولى: معركة فوّة[٥] ٢٦ رمضان ١٢٠٠هـ / ٢٣ يوليه ١٧٨٦م:

رأى أمراء المماليك أنه لا مناص من المواجهة مع قوات حسن باشا الجزائرلي؛ فأخذ مراد بك –بعد التشاور مع إبراهيم بك– جيشًا من المماليك، وذهب إلى فوّة؛ لقطع الطريق على حسن باشا الجزائرلي، فخرج من مصر بعساكر كثيرة ومعه كبار أمراء المماليك، مما يدل على قوة استعدادهم في المواجهة، وإصرارهم على محاربة القوات العثمانية.

حين علم القبطان باشا بتحرك المماليك نحو فوّة لقطع الطريق عليه، لم ينتظر مجيء العساكر البرية القادمة مع عابدي باشا، وأخذته الحَمية وأسرع إلى حفر الخنادق حول رشيد، ووضع فيها ألف جندي من العساكر المغاربة، وألف جندي من عساكر أخرى، ثم وضع بقية العساكر في السفن. وذكر واصف أفندي –المعاصر لهذه الفترة– واصفًا هذه المعركة بقوله: *"في سلخ رمضان ١٢٠٠هـ/ يوليو ١٧٨٦م تحرك حسن باشا نحو العصاة، وهجم على جيش "لاچين بك" و"مصطفى بك" في الرحمانية[٦] في ساحل النيل، وأمطروهم بالمدافع والقنابل والقذائف، وخرج القبطان بنفسه مع العساكر الشجعان إلى الساحل، ودخل وسط المماليك، وانتصر عليهم، وغنم مدافعهم، وشتت جمعهم، فهجم مراد بك الذي كان ينتظر خلف المعركة بكبر وغرور بثمانية آلاف معه على القبطان باشا، واستمرت المعركة ما بين خمس إلى ست ساعات، وكان النصر حليفًا للعثمانيين، فترك العصاة جميع مهماتهم، وهربوا، فغنم العثمانيون*

---

[١] قائد مملوكي كان له دور في الوقوف مع المماليك ضد حملة حسن باشا. يُنظر: الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص ١٥٩.

[٢] وردان: قرية من قرى مركز إمبابة في محافظة الجيزة، يُنظر: الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص ١٥٨.

[٣] ذكر القنصل الفرنسي في القاهرة "مورو" أن سكان رشيد في يوليو ١٧٨٦م حملوا السلاح طواعية للوقوف بجانب حسن باشا ضد المماليك، وأعرب الشعب بصفة عامة عن استعداده لمقاومة أمراء المماليك. يُنظر: أندريه ريمون: مرجع سابق، ج٢، ص ١٠٦٢.

[٤] قانون نامه مصر الذي وضعه السلطان سليمان القانوني في مصر بمساعدة وزيره إبراهيم باشا عام ١٥٢٥م. للمزيد حول القانون وبنوده يُنظر: ماجدة مخلوف: القانون الإداري لولاية مصر في العهد العثماني في ضوء التشريع الإسلامي مع الترجمة الكاملة لقانون نامه مصر، الطبعة الأولى، دار الآفاق العربية، القاهرة ٢٠٠٨م.

[٥] فوَّة: قرية قديمة بمحافظة الغربية، يُنظر: محمد رمزي: القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٤م، ج٢، ص ١١٣.

[٦] الرحمانية: قرية قديمة، اسمها الأصلي "محلة عبد الرحمن"، وهي إحدى قرى مركز شبراخيت بمحافظة البحيرة. يُنظر: محمد رمزي: مرجع سابق، ق٢، ج٢، ص ٣٠٥.

من النفائس الشيء الكثير، وأحرقوا غير المهم منها، التي يصعب نقلها، فألقوا ثمانية مدافع في البحر، وترك القبطان باشا مقدارًا من العسكر في فوّة، ثم عاد منتصرًا إلى رشيد"(١).

وقد وصف المؤرخ طيلساني زاده -وكان معاصرًا لهذه الفترة- هذه المعركة بقوله: *"وصل القبطان حسن باشا بأسطوله إلى الإسكندرية ونزل بها، ثم عبر النيل المبارك من رشيد، وصلى صلاة العيد في دمياط، وبينما كان في صلاته هجم من عساكر مصر حوالي ١٥ ألف عسكري بقيادة "مصطفى بك"، ووقعت حرب عظيمة بين الطرفين، انهزمت فيها جميع عساكر المماليك، واستولى العثمانيون على مدافعهم، وغنموا أسلحتهم ومهماتهم، وقد أرسل حسن باشا رسولًا إلى الصدر الأعظم يوسف باشا*(٢) *بهذا الخبر السعيد، فوصله الخبر يوم الأربعاء ٢٢ شوال سنة ١٢٠٠هـ (١٨ أغسطس ١٧٨٦م)"*(٣).

في الوقت الذي أسهبت فيه المصادر العثمانية بذكر تفاصيل هذه المعركة، وأظهرت انتصار العثمانيين على المماليك؛ جاء الحديث عنها في المصادر العربية مقتضبًا، يقول الجبرتي:" *وفي ثاني شوال ١٢٠٠هـ/ ٢٩ يوليه ١٧٨٦م أُشيع أن مراد بك ملك مدينة فوّة، وهرب من بها من العسكر ووقع بينهم مقتلة عظيمة، وأنه أخذ المراكب التي وجدها على ساحلها، ثم ظهر عدم صحة ذلك"*(٤). وذكر القلعاوي هذه المعركة بقوله:" *... ثم توجه مراد بك من مصر من جهة البر بعسكر، ولما أتى الرحمانية تحارب مع بعض عساكر الباشا، وانهزم مراد بك ومن معه ورجعوا فارين إلى مصر"*(٥).

وتحدث إسماعيل الخشاب في تاريخه عن هذه المعركة قائلًا:" *ورد الخبر في ثالث شوال بأن في يوم العيد وقت الشروق قدم جماعة إلى مصطفى بك من عسكر الروم ومعهم أربع مراكب وبصحبتهم هدية قدموها له، وذكروا له أنهم جاءوا فارين من عند حسن باشا ليكونوا مع المصريين، فاغتر بذلك واستأذنوه في العودة إلى مراكبهم، فأذن لهم، فرجعوا إليها ووقفوا بها محازيين لخيامه، وأطلقوا عليه منها مدافع، وخرج منها جماعة بأيديهم السيوف، فاقتتلوا قتالًا شديدًا. هكذا نقله الرواة"*(٦).

---

(١) Ahmed Vâsıf Efendi, a.g.e, s. ٣٥٧.

(٢) يوسف باشا: من الوزراء المشهورين في عصر السلطان عبد الحميد الأول، وعمل لفترة طويلة مع حسن باشا الجزائرلي، ونال الصدارة العظمى في ٢٤ ربيع الآخر سنة ١٢٠٠هـ/ ٢٣ فبراير ١٧٨٦م، وكان حسن باشا "قائمقام" الدولة. وتوفي وهو واليًا على جدة، ومحافظًا على المدينة المنورة في ١٢١٥هـ/ ١٨٠٠م. يُنظر: أحمد جاويد: حديقة الوزراء ذيلى، ورد مطرّى، إستانبول ١٢٧١هـ، ص ٣٨- ٣٩.

(٣) طيلساني زاده حافظ عبد الله أفندي (عبد الله لبيبة): تاريخ لبيبة، مخطوط بمكتبة أسعد أفندي، ضمن السليمانية، رقم ٢١٥٨، ورق ٤٦ ب. وقد نشر هذا الكتاب الدكتور فريدون أمجان في إستانبول عام ٢٠٠٣م باسم " Taylesanizâde Hâfız Abdullah Efendi Tarihi: İstanbul'un Uzun Dört Yılı: ١٧٨٥-١٧٨٩" لكنني لم أطلع على هذه النسخة.

(٤) الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص١٦٢.

(٥) القلعاوي: مصدر سابق، ورق ٢١٥.

(٦) إسماعيل الخشاب: مصدر سابق، ورق ٨٥.

وذكر في موضع آخر من كتابه أنه: *"شاع أن مراد بك قد انهزم، ثم تحقق ذلك وثبت بقدوم مراكب فيها خلق كثيرون جرحى"*[١]. وذكر في مصدر آخر له:" *ضرب جماعة حسن باشا على جماعة مراد بك بُنبَتيْن وبعض مدافع، فكر راجعًا مهزومًا وجماعته، وكان معه عشرة سناجق ولم يدخل مصر، وتوجه هو وإبراهيم بك إلى جهة الصعيد*"[٢].

يتبين مما سبق أن المصادر العثمانية كانت أكثر ثراءً في ذكر تفاصيل المعركة من خلال التقارير المرسلة من حسن باشا إلى الدولة، واجتماعات أرباب الدولة في إستانبول لبحث الشؤون المصرية، ورغم معاصرة الجبرتي وغيره من المؤرخين للحدث، إلا أنهم كانوا بعيدين عن مشاهدة المعارك التي وقعت بين العثمانيين والمماليك في مصر، فغابت عنهم تفاصيل بعض الأحداث واكتفوا بالنقل عن الرواة؛ لذا لم يكن موقفهم من الحملة قد اكتمل بعد.

استعمل أمراء المماليك الإشاعات ضد حملة حسن باشا الجزائرلي؛ فأشاعوا أنهم ملكوا فوّة في ٢ شوال ١٢٠٠هـ/ ٢٩ يوليو ١٧٨٦م، وحاربوا عساكر الدولة، واستولوا على مراكب الدولة؛ لصرف الناس عن تأييد الحملة، لكن تبين كذب دعواهم. كما أشاعوا إشاعة أخرى في ٤ شوال ١٢٠٠هـ/ ٣١ يوليو ١٧٨٦م عن انتصاراتهم الوهمية[٣].

دبّ الخوف في قلوب المماليك، ورجعوا إلى القاهرة متقهقرين بعد هزيمتهم في فوّة، وعند وصول جرحاهم إلى ميناء بولاق انتشر القيل والقال، ونقل إبراهيم بك متاعه وأمواله وأخفاها عن القبطان باشا، لكي لا يصادرها عند وصوله القاهرة، في الوقت الذي ذهب فيه بعض الأمراء إلى والي مصر طالبين الأمان[٤]، وبهذا حدثت الشُّقة والفُرقة في صفوف المماليك، مما أضعف موقفهم، وكان له تأثير كبير في سير الأحداث بعد ذلك.

أما عن أوضاع القاهرة آنذاك، فقد سعى والي مصر يكن محمد باشا – الذي قَوِيَ موقفه بوصول حسن باشا إلى مصر– إلى كسب تأييد الرعية وقادة السناجق العثمانية في مصر الذين فقدوا سلطتهم السابقة، فدعاهم إلى الانضمام إليه والمجيء إلى القلعة، واجتمع الجميع عنده، ومنعوا دخول المماليك بقيادة إبراهيم بك إلى القلعة، وأرسل والي مصر إلى حسن باشا يطلب حضوره سريعًا إلى القاهرة[٥].

---

(١) إسماعيل الخشاب: مصدر سابق، ورق ٨٥.

(٢) إسماعيل الخشاب: أخبار أهل القرن الثاني عشر الهجري، نسخة خطية محفوظة بالمكتبة الوطنية بباريس، تحت رقم ٨٥٠، ورق ٢٢أ.

(بنبتين) تنطق في العامية المصرية: بمبة، والمعنى حكاية صوت قذيفة المدفع.

(٣) الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص ١٦٢.

(٤) ذهب أمير بك أمير الحج، وأيوب بك الكبير وأيوب بك الصغير وكتخدا الجاويشية وسليمان بك الشابوري وعبد الرحمن بك بك عثمان وأحمد جاويش المجنون ومحمد كتخدا أزنور ومحمد كتخدا أباظة ورضوان بك بلفيا، وطلبوا الأمان من الوالي فأعطاهم الأمان وعين بعضهم في وظائف مختلفة. الجبرتي: مصدر سابق ج٢، ص ١٦٤.

(٥) سحر علي حنفي: الحملة العثمانية على مصر ١٢٠٠- ١٢٠١هـ/ ١٧٨٦- ١٧٨٧م في ضوء كتابات الجبرتي، مجلة المؤرخ المصري، عدد ٣٨، ٢٠١١م، ص ٣٢٧.

بعد أن وطّد حسن باشا الأمن في رشيد، ترك فيها بعض العساكر، وأمر بوضع بقيتهم في السفن، وعزم على الذهاب إلى القاهرة، فوصل بولاق في ١١ شوال ١٢٠٠هـ/ ٩ أغسطس ١٧٨٦م، واستقبله الناس استقبالًا حسنًا، لما توسموه فيه من الخير والصلاح، وما وجدوه من ظلم أمراء المماليك لهم من قبل[١]، ونزل حسن باشا القاهرة، وأقام بمنزل مراد بك، وسكن والي جُدّة أحمد باشا في منزل إبراهيم بك، وأعاد حسن باشا النظام في القاهرة، ثم أرسل رسولًا إلى الدولة بأنه حقق الأمن في ولاية مصر، وانتصر على المماليك في المعركة التي وقعت معهم[٢].

عقب وصول القبطان باشا إلى القاهرة أصدر أمره بعقد الديوان العالي، الذي حضره السادة والبكرية، وعلماء الجامع الأزهر، ووجوه البلد، فأحسن إليهم جميعًا، رغبة في وقوفهم بجانبه ضد متغلبة المماليك، واتخذ بعض الإجراءات الخاصة بوقف عمليات السلب والنهب، وأعرب عن رغبته في إنهاء سلطة المماليك، وإعادة النظام القديم على الصعيدين السياسي والاقتصادي، وأجرى بعض الإصلاحات الإدارية الجديدة؛ حيث عيّن إسماعيل بك دفتردارًا وحسن بك الجداوي أميرًا للحج، وأرسل إليهما بالحضور إلى القاهرة، وألبس ستة من أمراء من المماليك والوجاقلية خِلعًا حسنة، وحثّ الجميع على الرجوع إلى قانون السلطان سليمان القانوني، والعمل به[٣].

سعى حسن باشا إلى إعادة السلطة العثمانية في مصر من خلال مؤيديها من المماليك، وإرجاع سلطة العلوية المفقودة بدلًا من المحمدية من جديد؛ لخلق توازن بين القوى المحلية، كما أعاد سلطة السناجق العثمانية المفقودة، ورد إليهم العديد من المقاطعات التي سلبها عصاة المماليك منهم، مثل: مقاطعات جمرك التوابل والسلخانة[٤]، وقد مثَّل عودة نفوذ السناجق العثمانية إعادة الهيكلة الإدارية في مصر. وبعد ذلك أرسل حسن باشا رسالة إلى عاصمة الدولة بأنه استطاع أن يهزم أمراء المماليك العصاة، مُحققًا للأمن الضائع في ولاية مصر.

تابعت الحكومة العثمانية حملة حسن باشا الجزائرلي والشؤون المصرية في هذه الفترة باهتمام بالغ، فعندما أرسل القبطان باشا أخباره السارة إلى عاصمة الدولة بوصوله القاهرة وهروب المماليك إلى الصعيد والبدء في مصادرة أموالهم، نال إعجاب السلطان عبد الحميد

---

[١] استبشر الناس به وفرحوا وظنوا أنه مهدي الزمان واستقبلوه وسط ترحاب شديد. يُنظر: الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص ١٦٨.

[٢] طيلساني زاده حافظ عبد الله أفندي (عبد الله لبيبة): مصدر سابق، ورق ٤٦ ب.

[٣] Ahmed Vâsıf Efendi, a.g.e, s. ٣٥٨.

[٤] ذكر أندريه ريمون أن ضباط الأوجاقات في مصر بدأ في الظهور في دفاتر المالية بأرشيف القلعة منذ عام ١٢٠٠هـ أي في فترة حسن باشا الجزائرلي، مثل رضوان كتخدا في جمرك الإسكندرية وبولاق بعد أن كان المماليك هم المسيطرين على هذه الجمارك منذ علي بك الكبير. يُنظر: أندريه ريمون: مرجع سابق، ج٢، ص ١٠٦٤، سحر علي حنفي: مرجع سابق، ص ٣٢٩.

الأول فأرسل إليه "مير آخور ثاني"[١] "ساقزلى محمد أغا" بفرو سمور وخلع وتشريفات، كما أرسل خلعًا أخرى وسيوف إلى أحمد باشا والي جُدّة، ويكن محمد باشا والي مصر[٢].

كلّف السلطان عبد الحميد الأول رئيس الكُتَّاب السابق "فيض الله أفندي" بمأمورية إلى مصر[٣]؛ لضبط السفن، وتنظيم أموال الخراج، والخزينة الإرسالية في مصر، وبيع المقاطعات المحلولة (الشاغرة) -التي تركها أمراء المماليك وهربوا-، وضبط أموال الحلوان، وتنظيم غلال الحرمين الشريفين، وأمور الحج المصري، والعمل تحت إمرة القبطان باشا في إعادة النظام المالي في مصر من جديد[٤]. ثم أرسلت الحكومة العثمانية بعد ذلك فرمانًا إلى حسن باشا بشأن قتال العصاة، والتفتيش عن أموالهم، والانتقام ممن يخفي الأموال من أتباعهم، وعدم التساهل في هذا الأمر، وطلب حلوان عن البلاد فائض ثلاث سنوات[٥].

انتقد الجبرتي بشدة تصرف حسن باشا في جمع المال بأي طريقة، وعند ذكره ما كان من قرار حسن باشا بيع جواري إبراهيم بك، وأمره بيع أولاد إبراهيم بك وهو مرزوق بك وعديله والتشديد على زوجاته، إنما ذكره من قبيل الانتقاد والاعتراض، إذ ذكر أن الشيخ السادات ذهب إليه وتحدث معه في عدم إجازة بيع الأحرار وأمهات الأولاد، الأمر الذي جعل حسن باشا يتغيَّر موقفه من الشيخ السادات بعد ذلك[٦].

كان الجبرتي مُحقًّا في نقده هذا؛ فقد سعى حسن باشا إلى الضغط على الأمراء الفارين عن طريق مصادرة أموالهم وبيع جواريهم، لكن وقوف العلماء ضده في عدم مشروعية جواز بيع الأحرار وأمهات الأولاد جعله يصرف النظر عن الأمر.

لكن جودت باشا في تاريخه -نقلًا عن واصف أفندي- عند تناوله حادثة جمع حسن باشا المال في ولاية مصر: ذكر أنه حاول جمع المال لمواجهة الأزمة المالية، وأنه شدَّد على زوجة إبراهيم بك لإخراج مال زوجها المخفيّ، وشدَّد على جواري وعبيد أمراء المماليك الهاربين، وبيع ممتلكاتهم، وذكر تضايق العلماء من ذلك[٧]، لكنه لم يذكر -مطلقًا- بيع الأحرار وأمهات الأولاد، أو بيع أولاد إبراهيم بك -مرزوق وعديله-، رغم رجوعه لتاريخ الجبرتي في أكثر من

---

[١] وصل القاهرة يوم الاثنين ١٧ ذي القعدة ١٢٠٠هـ/ ١١ سبتمبر ١٧٨٦م. الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص ١٨١.

[٢] طيلساني زاده حافظ عبد الله أفندي (عبد الله لبيبة): مصدر سابق، ورق ٤٨أ، كذلك يُنظر: Ali Karahan, Cezayirli Gazi Hasan Paşa'nın Hayatı ve Faaliyetleri ١٧١٤- ١٧٩٠, yayınmamış doktora tezi, Türkiyat Araştırmaları Enistitüsü, İstanbul ٢٠١٧, s.٨٦.

[٣] وصل القاهرة يوم الثلاثاء ٢ ذي الحجة ١٢٠٠هـ/ ٢٦ سبتمبر ١٧٨٦م. الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص١٨٥.

[٤] الأرشيف العثماني: تصنيف C.ML.٧٦٤/٣١١٤٧، ٦ ربيع الأول ١٢٠٠هـ. تصنيف C.DH.٩٣/٤٦٤٠، أوائل ذي القعدة ١٢٠٠هـ. يُنظر كذلك:.Ahmed Vâsıf Efendi, a.g.e, s.٣٥٩ ، جودت باشا: مصدر سابق، ج٢، ص ٣١١.

[٥] الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص ١٦٨.

[٦] الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص ١٧٤.

[٧] جودت باشا: مصدر سابق، ج٣، ص ٣١٠.

موضع من تاريخه؛ وذلك كي لا ينتقد حسن باشا وحملته. فلجأ جودت باشا إلى تبرير موقف حسن باشا الشديد، ودافع عنه وإن استنكر قسوته الظاهرة في تعامله مع الأمر.

وقد أرسل السلطان عبد الحميد الأول فرماناً بتاريخ أواخر ذي القعدة ١٢٠٠هـ/ أواخر سبتمبر ١٧٨٦م إلى حسن باشا الجزائرلي، وإلى والي مصر يكن محمد باشا، وقاضي مصر، والسادات البكرية، وضباط الأوجاقات، طلب فيه: السعي في القضاء على المماليك العصاة، وعدم أخذ زوجاتهم بجريرة ظلمهم، وطلب منهم إركاب زوجات الأمراء العصاة السفن، وإرسالهم إلى مركز الدولة في إستانبول، ليكونوا في أمنٍ وأمان[١]. وإن كان السلطان راغبًا في الضغط على العصاة بوسيلة أخرى، فكان تنبيهه على حسن باشا ووالي مصر واضحًا في عدم التعرض لزوجات العصاة بموجب "ألَّا تزر وازرةٌ وزرَ أخرى"[٢].

أرسل حسن باشا عدة مراكب مليئة بالعسكر خلف المماليك الهاربين إلى الصعيد، واستولى على عدة مراكب من مراكبهم، وأرسلها إلى ساحل بولاق[٣]. وبدأ حسن باشا منذ وصوله إلى القاهرة في تتبع أموال أمراء المماليك الفارين، وذلك للإنفاق منها على مصاريف الحج، وإرساله في موعده من جانب، ولتوفير خزينة إرسالية يأخذها معه عند عودته من مصر من جانب آخر، فأرسل إلى نُوّاب القضاة في يوم الثلاثاء ٣ شوال ١٢٠٠هـ/ ٩ أغسطس ١٧٨٦م، وأمرهم أن يذهبوا إلى بيوت الأمراء، ويكتبوا إليه ما يجدونه من تركاتهم، ويودعونه في مكان من البيت، ويختمون عليه[٤].

وبهذا انتهت المرحلة الأولى من حملة حسن باشا الجزائرلي بإحكام سيطرته على القاهرة، وهروب إبراهيم بك ومراد بك إلى الصعيد والسيطرة عليه، ثم وقوع معركة فيما بينهما، وكل ذلك حدث قبل وصول عابدي باشا بالعساكر البرية، مما جعل واصف أفندي يمدح حسن باشا لانتصاره في هذه الملحمة العسكرية الكبيرة، واستيلائه على القاهرة من دون العساكر البرية، مما لفت أنظار أوروبا التي كانت ترى في الدولة العثمانية ضعفًا لا يُمكِّنها من إرسال الحملات العسكرية، وإعادة النظام في إحدى ولاياتها البعيدة[٥].

على الرغم من انتهاء المرحلة الأولى من الحملة لصالح حسن باشا؛ فإن الصعيد ما زال في يد المماليك، وهذا ما لم يذكره الجزار باشا في تقريره عن هروب المماليك إلى الصعيد أو عن كيفية مواجهة الحملة لذلك، مما يدل على وجود خلل في هذا التقرير أو كتمان بعض

---

[١] الأرشيف العثماني: دفتر مهمة مصر رقم ١٠، حكم ١٨٥/ ص ٨٨، أواخر ذي القعدة ١٢٠٠هـ.
[٢] سورة النَّجم، آية (٣٨).
[٣] الجبرتي: مصد سابق، ج٢، ص ١٦٨.
[٤] الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص ١٦٩.
[٥] Ahmed Vâsıf Efendi, a.g.e, s. ٣٥٩.

المعلومات عن الدولة في حالة عدم اختياره هو لقيادة هذه الحملة، ومع ذلك استمرت الحروب بين حسن باشا والمماليك عند وصول عابدي باشا ودرويش باشا من ناحية الشام.

المرحلة الثانية من حملة حسن باشا الجزائرلي:

بدأت المرحلة الثانية من الحملة بوصول عابدي باشا ودرويش باشا بعساكرهما إلى القاهرة[١]، فوصلا في ١ ذي القعدة ١٢٠٠هـ/ ٢٥ أغسطس ١٧٨٦م، واستقرا بجوار القاهرة[٢]، فأرسلهما حسن باشا لمحاربة أمراء المماليك في الصعيد، والتنسيق مع أمراء العلوية -إسماعيل بك وحسن بك الجداوي-، ثم في يوم الإثنين ٢٤ ذي القعدة ١٢٠٠هـ/ ١٧ سبتمبر ١٧٨٦م وصل باشا[٣] من ناحية الشام من أمراء "شين أوغلى" وصحبته نحو ألف عسكري، فنزل بهم في العادلية[٤]، ثم دخلوا القاهرة بعد ذلك، وأرسله حسن باشا أيضًا إلى الصعيد لمحاربة العصاة في يوم الخميس ٢٧ ذي القعدة ١٢٠٠هـ/ ٢٠ سبتمبر ١٧٨٦م[٥]. وبهذا زادت زادت قوة حسن باشا العسكرية، وتفرغ لتوطيد الأمن وإجراء إصلاحات إدارية في القاهرة، ومصادرة أموال المماليك الفارين، وترك محاربة العصاة للقوات البرية بمساعدة المماليك العلوية.

المعركة الثانية: معركة جرجا[٦] ٣ محرم ١٢٠١هـ/ ٢٦ أكتوبر ١٧٨٦م:

أراد القبطان باشا إنهاء مأموريته قبل أن يحل عليه الشتاء، وأخذ رؤوس المماليك العصاة والرجوع بها إلى الدولة، كما كانت تأتيه أوامر من السلطان عبد الحميد الأول بالحث على قتالهم والاستيلاء على أموالهم، ومعاقبة من يخفي شيئًا منها، وذلك لحاجة الدولة لهذه الأموال[٧]، فأرسل القبطان باشا -كما ذُكر سابقًا- عابدي باشا ودرويش باشا وشين أوغلى فور وصولهم بالجيش السلطاني من العساكر البرية والبحرية، مع الاتحاد مع عساكر المماليك الموالية الموجودين في الصعيد بقيادة إسماعيل بك وحسن بك الجداوي، ووقعت معركة كبيرة بين الطرفين في جرجا، لكنها لم تحقق النصر على العصاة، فلم يُعلم فيها الغالب من المغلوب

---

[١] كان سبب تأخر عابدي باشا في المجيء إلى مصر هو قيام فيروز بك بحصار الرقة خوفًا من هجوم عابدي باشا عليه بعد سماعه بتجهيز عساكر ومهمات. يُنظر: Ahmed Vâsıf Efendi, a.g.e, s.٣٤٩.

[٢] الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص ١٧٦.

[٣] لم يذكر الجبرتي اسمه. يُنظر: الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص ١٧٦.

[٤] العادلية: هي القبة التي بناها السلطان الملك العادل طومان باي فوق تربته التي عرفت بالعادلية، وهذه القبة باقية حتى اليوم في العباسية. يُنظر: الجبرتي: مصدر سابق، ج ١، ص ٥٤.

[٥] الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص ١٨٤.

[٦] جرجا: مدينة قديمة، اسمها الأصلي "دجرجا"، كانت قاعدة لمديرية جرجا، وفي العهد العثماني كان بها كشوفية جرجا، وهي الآن قاعدة مركز جرجا بمحافظة سوهاج. يُنظر: محمد رمزي: مرجع سابق، ق٢، ج٤، ص ١١٣.

[٧] الأرشيف العثماني: تصنيف C.ML.١٦٩/٧١٢١، أواخر ذي القعدة سنة ١٢٠٠هـ.

على حد قول واصف أفندي، فانسحب العسكر السلطاني إلى سفنهم، وأمراء المماليك إلى خيامهم، فغضب حسن باشا من طول مدة الحملة، وعدم تحقيقه للنصر القاطع على العصاة[١].

استمر القتال بين الطرفين في جرجا، فوقعت معركة أخرى في نواحيها بين الطرفين، استبسلت فيها العساكر العثمانية مع المماليك العلوية، ووقعت حرب ضروس ظهرت فيها شجاعة عابدي باشا –التي شهد لها الطرفان–، وأُصيب إسماعيل بك برصاصة، وجُرح حسن بك الجداوي، واستشهد ابن أخي عابدي باشا، ونهب العصاة أمواله ومتاعه، فعادت العساكر العثمانية إلى القاهرة، وانسحب بقية العصاة إلى جرجا[٢].

عندما سمع حسن باشا بوضع العساكر العثمانية في المعركة الأخيرة، ومجيء إسماعيل بك مصابًا، وإشاعة هزيمة العثمانيين، أرسل يطلب مددًا من العساكر الموجودة في الإسكندرية، وأرسل إلى مركز الدولة يخبرهم بالوضع في مصر[٣].

اتخذ حسن باشا بعض التدابير الأخرى في القاهرة، فعقد الديوان العالي، وأخبر بعزل والي مصر يكن محمد باشا، وتعيين عابدي باشا واليًا بدلًا منه؛ لما أظهره من شجاعة في معركة جرجا. واختلفت المصادر العربية والعثمانية في تفسير حادثة عزل يكن محمد باشا؛ فذكر الجبرتي أن عزله كان لأمور باطنية بينه وبين حسن باشا، بينما ذكر واصف أفندي أن سبب عزله راجع إلى طمعه في المال، وعدم تخفيف الضرائب على الرعايا، وأنه قد خيَّب آمال السلطان فيه؛ لذلك تم عزله بناءً على عرض أهالي مصر ورسائلهم للدولة[٤].

أورد الجبرتي في تاريخه هذه القصة، وسببها أن إبراهيم بك في فترة تعيينه قائمقام عن الوالي يكن محمد باشا، أخذ من التجار ٤٤ ألف فرانسة على حساب الوالي، أي أن هذا المبلغ كان يدفعه التجار لوالي مصر الجديد كضريبة خاصة به، ولأن إبراهيم بك كان قائمقام عن الوالي الجديد فإنه أخذ هذا المبلغ لنفسه وصرفه، وعندما طالب الوالي بحقه في هذا المال من التجار اعتذروا إليه وماطلوه، فلما هرب إبراهيم بك من مصر طالبهم بحقه في المال مرة أخرى، فقالوا: إنهم دفعوا المال كاملًا إلى إبراهيم بك. فلما عُزل من الولاية حاسبه حسن باشا على فترة ولايته فخرج عليه مالٌ كثيرٌ طالبه به وشدَّد عليه فيه، وحاسبه على المال الذي لم

---

(١) Ahmed Vâsıf Efendi, a.g.e, s.٣٧٥,٣٧٦.

(٢) جودت باشا: مصدر سابق، ج٢، ص ٣١٣، ٣١٤. الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص ١٩٥، القلعاوي: مصدر سابق، ورق ٢١٥، İsmail hakkı uzunçarşlı, a.g.e, c.٥, s.٥١٤.

(٣) الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص١٩٥، جودت باشا: مصدر سابق، ج٣، ص ٣١٣، ٣١٤.

(٤) الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص١٩٥، Ahmed Vâsıf Efendi, a.g.e, s. ٣٦٧. ، جودت باشا: مصدر سابق، ج٢، ص ٣١٦. وهناك رأي آخر بأن يكن باشا كان مسئولًا عن عدم جمع الضرائب للدولة، وعدم إدارة ولاية مصر جيدًا، وتأخير أموال في ذمته، ومسئوليته عن الوضع السيء الذي حدث في مصر، لهذا تم عزله. يُنظر: Necmi Ülker, a.g.e, s.٢٢.

يأخذه من التجار، وعقد جلسة محاكمة بينه وبين التجار، وذكر الجبرتي أنه كان سببًا في عزله[١].

ذكر واصف أفندي في تاريخه ونقله عنه جودت باشا: أن سبب عزل والي مصر هو طمعه في أموال الولاية، ولم يكن مثل المتوقع منه في الإدارة[٢]، ولأن واصف أفندي مؤرخ رسمي للدولة، لم ينتقد حسن باشا أو السلطان في عزل الوالي، ولم يذكر دور حسن باشا قط في عزله، لكن الجبرتي كان أقرب للواقعة من واصف أفندي، وكلامه مُصدَّقٌ عنه. وعندما تحدث جودت باشا عن عزله ومعاملة حسن باشا له برر ذلك أيضًا قائلًا: إن في ذمته ١٢٢٥ كِيسًا، ومن الطبيعي أن يطالب بها حسن باشا؛ لوجود أزمة مالية في مصر، وحاجته إلى نفقات الجند ومصروفات الحملة، ومساعدته لحسن باشا في مجيئه إلى القاهرة هذا من أصل عمله واليًا، أما الميري فهو حق للدولة، وأن المطالبة به ليست قبحًا، لكن من حقه أن جزءًا كبيرًا من المال أخذه المماليك، ومعاملة القبطان له بصورة غير لائقة، وبهذا نرى دفاع جودت عن حسن باشا، والتماسه العذر للوالي.

أراد حسن باشا مواجهة الأزمة المالية، وإنهاء مأموريته في مصر، وتنفيذ أوامر السلطان بأسرع وقت ممكن عن طريق التودد إلى الزعماء المماليك المحليين –المؤيدين للدولة– ، فعقد ديوانًا يوم الإثنين ١٤ محرم ١٢٠١هـ/ ٦ نوفمبر ١٧٨٦م في بيته، اجتمع فيه الأمراء والسناجق والمشايخ، وألبس إسماعيل بك خلعةً، وعيّنه شيخًا للبلد وكبيرًا للمماليك، وألبس حسن بك الجداوي خلعةً، وقلده إمارة الحج، وأوصى الجميع باتباعهما، وبذل الهمة في القضاء على العصاة[٣]. وبهذا أراد حسن باشا كسب تأييد المماليك التابعين له، وتحقيق توازن للقوى في الولاية. ومن جانب آخر عطف على الأشراف، وأمر الجميع بتبجيلهم واحترامهم، ومنع العساكر من الانتساب لأهل الحِرَف، فسُرَّ الحرفِيُّون منه[٤].

جمع أمراء المماليك أنفسهم –بعد هزيمتهم السابقة–، وأخرجوا أموالهم، وأعطوها للعربان وأسافل الناس للوقوف معهم، وكونوا جيشًا كبيرًا، وساروا به إلى القاهرة؛ لمعاودة الهجوم عليها، فوصلت مقدمة جيشهم إلى بني سويف، وانتشر الخبر، ووصل إلى القبطان باشا؛

---

(١) الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص ١٧٩، ١٨٠. ذكر الجبرتي أيضًا أن والي مصر عندما أخفى الرسائل المرسلة له من القبطان باشا ولم يعلنها في القاهرة خوفًا من غضب المماليك نعته بـ "خائن منافق"، وكان هذا بداية الخلاف فيما بينهما. ج٢، ص ١٦١.

(٢) جودت باشا: مصدر سابق، ج٣، ص ٣١٥، ٣١٦.

(٣) الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص ١٩٥، جودت باشا: مصدر سابق، ج٣، ص ٣١٤.

(٤) الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص ١٧١.

فأمر عساكر القاليونجية بركوب السفن، وعيّن عليهم "جالباقي زاده علي بك" قائدًا، وأمره بالذهاب إلى "دير الطين"، كما أمر بحفر المتاريس والخنادق، وتقوية هذه الأماكن وتحصينها[١].

المعركة الثالثة: معركة الأهرام ١٢ صفر ١٢٠١هـ/ ٤ ديسمبر ١٧٨٦م[٢]:

تقدم المماليك من بني سويف حتى وصلوا إلى منطقة الأهرامات، وحاولوا استغلال عودة الحجاج من الحج في الهجوم على القاهرة والاستيلاء عليها، لكن القوات العثمانية كانت على علم مُسبَق بتحركاتهم فاستعدت للمواجهة، وعند هجوم العصاة على العساكر العثمانية المتحصنة في الخنادق اشتبك الطرفان، واستمر القتال بينهما قريبًا من خمس ساعات، وظهرت بسالة العثمانيين، وتمكنوا من هزيمة العصاة، ففروا وانسحبوا، وغنم العثمانيون مهماتهم[٣]. حاول المماليك الهجوم على العثمانيين في اليوم التالي، لكنهم هُزموا أيضًا، وتركوا أحمالهم وأثقالهم، وفروا إلى الصعيد مرة أخرى[٤]. وهذا مما اتفقت عليه المصادر العثمانية والعربية في ذكر هزيمة المماليك في موقعة الأهرام، وهروبهم إلى الصعيد.

ضَعُف موقف المماليك تدريجيًا بعد هذه المعارك المتواصلة مع العثمانيين، مما أدى إلى انفصال بعض أمرائهم عنهم، وانحيازهم إلى حسن باشا، وكذلك تخلت عنهم قبيلة عرب الهنادي، وفارقتهم، ولما أحسوا بضعف موقفهم جنحوا للسلم؛ فأرسلوا إلى حسن باشا مكاتبات يطلبون فيها الأمان، وتعيين أماكن لهم في الصعيد. وجدير بالذكر أنهم أرسلوا المنهوبات المسروقة من عابدي باشا، وبعض العساكر المجروحين، كدليل على صدق نيتهم في الصلح، فوافق حسن باشا على الصلح شريطة إرسال بقية الأمراء والعساكر الموجودين معهم، وألا يكثر جمعهم في قلة، فرفضوا ذلك، وصار أمر الصلح بينهما مُعلّقًا[٥].

في الوقت الذي كانت فيه أمور الصلح تتبادل بين الطرفين على النحو المذكور؛ تخابر إبراهيم بك ومراد بك مع "كاترينة الثانية"[٦] -حاكمة روسيا- بواسطة قنصل روسيا في

---

[١] Ahmed Vâsıf Efendi, a.g.e, s.٣٧٦.

[٢] جاء تاريخ هذه المعركة في الجبرتي ١٢ صفر، بينما في واصف أفندي ١٠ صفر ١٢٠١هـ.

[٣] Ahmed Vâsıf Efendi, a.g.e, s.٣٧٦.

[٤] الخشاب: مسالك التبيان، ورق ١٠٦ب، الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص ٢٠٢.

[٥] الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص ٢٠٤.

[٦] كاترينة الثانية: حاكمة روسيا، استولت على بلاد القرم وعلى قلعة آزاق من الدولة العثمانية، تُوفيت سنة ١٧٩٧م. يُنظر: محمد فريد بك المحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق: إحسان عباس، طبعة ١٢، ، دار النفائس، بيروت، لبنان ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م، ص ٣٢٩، ٣٣٠.

الإسكندرية "البارون قونس"، وطلبوا مساعدتها ضد الدولة العثمانية بعد أن عرفوا حقيقة الوضع[١].

ذكر القلعاوي –المعاصر لهذه الفترة– عن هذه الواقعة في تاريخه ما نصه: "عند مجيء حسن باشا إلى مصر أرسل الروس يخبرون المماليك بأن السلطان العثماني قد وجه عليكم عساكر كثيرة، وحذرهم منها، لكنهم لم يهتموا بذلك، وعندما أدركوا جدية الوضع وحلت بهم الهزيمة وهربوا إلى الصعيد، أرسلوا إلى الروس من جديد"[٢]. يُفهم من ذلك أن أمراء المماليك عندما فقدوا الأمل في الصلح مع الدولة العثمانية، وأيقنوا بعجزهم عن مواجهتها، طالبوا روسيا بالوقوف معهم ومساندتهم في محاولة الاستقلال بمصر، والمشاركة في مواجهة الدولة العثمانية سويًا، فأبدت روسيا الموافقة على ذلك، وأكدت استعدادها معاونة المماليك.

المعركة الأخيرة: وقعة جرجا الثانية ٢٨ ربيع الآخر ١٢٠١هـ/ ١٧ فبراير ١٧٨٧م:

رغب حسن باشا الجزائرلي في حل مسألة أمراء المماليك من جذورها، وتحقيق نصر حاسم عليهم، فلم يعتد القبطان باشا الفشل في أي مأمورية سابقة، إلى جانب كثرة إلحاح السلطان عليه من أجل إنهاء قضية المماليك، والعودة إلى عاصمة الدولة، فجهز –هذه المرة– جيشًا كبيرًا بقيادة عابدي باشا ومعه الدفتردار علي بك[٣] وجميع المماليك –المخلصين للدولة– وإسماعيل أغا الكتخدا[٤] وعساكر القاليونجية، وزوده بالمدافع والمهمات اللازمة، ونبّه الجميع على ضرورة القضاء على عصاة المماليك، وقد صنع على ساحل بولاق أسلحةً دفاعيةً حديثةً –وفقًا لهذا العصر– تُعرف باسم "جرخ فلك"[٥]، استعملوها في هذه المعركة، فوقعت معركة كبيرة في

---

[١] Ali Karahan: a.g.e, s. ٨٧. İsmail hakkı uzunçarşlı, a.g.e, c.٥, s. ٥١٥-٥١٧.

[٢] جاء النص على هذا النحو: "وسبب ذلك أن قبل تاريخه عند قدوم حسن باشا المذكور مصر أرسل الموسقوا يخبرهم أن السلطان العثملى موجه لكم عساكر تكونون على حذر فلم يعتنوا ذلك ولما توجهوا إلى الصعيد أرسلوا للموسقوا ووقع بينهم مراسلة". يُنظر: القلعاوي، صفوة الزمان فيمن تولى على مصر من أمير وسلطان، مخطوط، ورق ٤٥ب، وهناك اختلاف بين المخطوط والمطبوع في هذه الواقعة، يُنظر المطبوع، ص ٢٨٩. وذكر الجبرتي هذه الواقعة في حوادث يوم الأربعاء ١٦ ذي الحجة ١٢٠٢هـ/ ١٧ سبتمبر ١٧٨٨م، أي بعد انتهاء الحملة بسنة.

[٣] علي بك الدفتردار: هو مملوك سليمان أفندي التابع لإبراهيم القازدغلي، عمل في كتخدا الجاويشية في مصر، ثم في كشوفية شرق أولاد يحيى في عهد علي بك المملوكي، وكان صاحب نفوذ عند إبراهيم بك، وراسل حسن باشا الجزائرلي ضد عصاة المماليك، فعينه حسن باشا في الدفترداريـة، وفوض إليه جميع الأمور المالية في مصر، توفي في سنة ١٢١٣هـ/ ١٧٩٩م. يُنظر ترجمته في: الجبرتي: مصدر سابق، ج٣، ص ١٠٨- ١١٢.

[٤] إسماعيل أغا الكتخدا أو كتخدا إسماعيل أغا: إسماعيل أغا: هو إسماعيل باشا التونسي بعد ذلك، جاءته رتبة الوزارة وهو في مصر في شهر ربيع الأول ١٢٠٣هـ/ ٣٠ نوفمبر ١٧٨٨م، وهو كتخدا حسن باشا الذي تركه في مصر عند رحيله، وتعين رسميًا على ولاية مصر في ١٠ جمادى الآخرة ١٢٠٣هـ/ ٨ مارس ١٧٨٩م، وضبط أمور الولاية وأرسل الخزينة الإرسالية للدولة أواخر جمادى الأولى ١٢٠٥هـ/١ فبراير ١٧٩١م برفقة عبد الرحمن بك عثمان، وعُزل من ولاية مصر في غرة رمضان ١٢٠٥هـ/ ٤ مايو ١٧٩١م وسافر إلى الدولة العثمانية. يُنظر: الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص ٢٦٧، ٢٧٢، ٢٩٤، ٢٩٦.

[٥] چرخ فلك Çarh-ı Felek: نوع من الدفاعات المستخدمة في حصار القلاع قديمًا، وهو عبارة عن متراس مصنوع من شجر الصنوبر، وسبب إطلاق هذا الاسم عليه أنه عبارة عن قطع مفصلات يجمعها أغربة من حديد، وعليها حراب محددة الأطراف، وبين كل مقصين أسفل الأخشاب مدفع موضوع على شبه بسطة من الخشب. يُنظر: الجبرتي: مصدر سابق، ج٢،

جرجا بين الطرفين، كان للسلاح الدفاعي الجديد (جرخ فلك) دور كبير في حسم المعركة لصالح العثمانيين، حيث قُتل من المماليك: "لاچين بك" و"علي أغا" و"عزوز كتخدا عزبان"، وثلاثمائة آخرين، وقُتل أكثر عربان الهنادي، وقُبض على كبيرهم أسيرًا، واستمرت المعركة ست ساعات، إلى أن هرب العصاة بعدها إلى أسوان وإبريم[١]. وجُرح من العثمانيين: "علي بك"، واستشهد "ذو الفقار كاشف"، و"علي جربجي المشهدي"[٢]، واستولى العثمانيون على مهمات المماليك ومتاعهم.

عندما وصل الخبر إلى حسن باشا في القاهرة سُرّ سرورًا كبيرًا، وأمر بضرب المدافع من القلعة احتفالًا بالنصر، وحضر جميع المشايخ والأعيان ورجال الأوجاقات لتهنئته[٣]. وعيّن حسن بك الجداوي على أسوان، وأمر العساكر بالعودة إلى القاهرة، ثم أرسل تحريراته إلى السلطان يخبره بهذه الانتصارات الجديدة[٤].

مثّل انتصار العثمانيين في هذه المعركة ضربةً قاصمةً للمماليك؛ لم يستطيعوا بعدها لم شملهم، فانفصل عنهم بعض الأتباع[٥] الذين دخلوا في طاعة الدولة العثمانية، وتفرق بعضهم الآخر في القرى والبلاد وهم في حالة سيئة يُرثَى لها، وذهب مراد بك وإبراهيم بك إلى "إبريم" مع قلة قليلة من أتباعهما، وهم في أسوأ حال من العري والجوع[٦].

بعد عودة العساكر العثمانية إلى القاهرة، أرسل أمراء المماليك إلى حسن باشا يطلبون الصلح، لكنهم طلبوا أيضًا تخصيص بلاد أخرى لهم زيادةً على المُعيّنة لهم؛ لأنها لا تُرضِي أطماعهم ولا تكفيهم، فأمر لهم حسن باشا بخمسة بلاد أخرى[٧].

رأى حسن باشا أنه من المناسب عقد الصلح مع المماليك، وتخصيص قنا وأسوان لإقامتهما؛ لأنه كان في القاهرة يمر بأزمة مالية، إضافةً إلى وقوع الانشقاق بين صفوف المماليك التابعين له، واستدعاء الدولة له لقرب أوان حربها مع روسيا، وتعيين "باكير قبطان باشا" قائمقام عنه حتى يصل إلى إستانبول. كل هذه الأسباب جعلته يقبل الصلح مع المماليك شريطة أن يبقوا في أسوان، ولا يدخلون القاهرة. فما زال موقفه قويًّا، ومسيطرًا على القاهرة، ولديه من القوة العسكرية الكبيرة التي تمكنه من مواجهة المماليك إذا ما ساروا ناحية القاهرة.

ص ٢٠٤، وقد وردت باسم "شركفلك". أحمد سعيد سليمان: مرجع سابق، ص ١٣٤،١٣٥، وقد وردت باسم "الشركفلك". يُنظر كذلك: Mehmet Zeki Pakalın: a.g.e, c.١, s. ٣٢٦.

[١] إبريم: قرية قديمة، إحدى قرى مركز عنيبة في محافظة أسوان. يُنظر: محمد رمزي، ق٢، ج٤، ص ٢٣٠.

[٢] الخشاب: مسالك التنبيان، ورق ١٠٧ب- ١٠٨أ، الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص ٢٠٧. Ahmed Vâsıf Efendi: a.g.e, s.٣٨٣.

[٣] الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص ٢٠٨.

[٤] Ahmed Vâsıf Efendi: a.g.e, s.٣٨٤.

[٥] ذهب يحيى بك وحسن كتخدا عزبان إلى عابدي باشا وأعلنا الطاعة للدولة، فمنحهما الأمان وألبسهما خلعًا، وعُين يحيى بك محافظًا على إسنا بعد ذلك. الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص ٢٠٩.

[٦] Ahmed Vâsıf Efendi: a.g.e, s.٣٨٤.

[٧] الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص ٢١٨. دون تحديد لأسماءها.

بدأ حسن باشا في نهاية أيامه بمصر في جمع المال الميري الذي سيعود به إلى الدولة، ولأنه كان مأمورًا بجمع المال من قبل السلطان، بدأ في إعادة الضرائب التي ألغاها عند وصوله؛ ففرض ضريبة جديدة بتحريض من إسماعيل بك سمّاها "التحرير" بدلًا من ضريبة "رفع المظالم"، مما جعل الناس تتغير عليه، وخاب ظنهم فيه، وتمنَّوا زواله على حد قول الجبرتي، كما ضيق على المسيحيين في مصر وفرض عليهم ضرائب زائدة.

فقد ذكر الجبرتي في تاريخه أن حسن باشا بعد وصوله القاهرة أمر المسيحيين بعدم ركوب الدواب مثل المسلمين، وألا يستخدموا المسلمين في العمل عندهم، وألا يشتروا الجواري والعبيد، وأن يلزموا زيَّهم الأصلي من شد الزنَّار والزنوط، كما أمر بالكشف عن أوقاف المعلم إبراهيم الجوهري –المسيحي– على الأديرة والكنائس من أطيان ورزق وأملاك. وعلَّق الجبرتي على ذلك بأن الهدف منه: "جمع المال والمصالح"[١]، كما أمرهم بتغيير أسمائهم التي على أسماء الأنبياء مثل: موسى وعيسى ويوسف، كما ضيَّق عليهم في الضرائب والجزية بخلاف ما يدفعونه من الجزية الديوانية المقرَّرة عليهم، وقرَّر على بيوت النصارى الذين خرجوا بصحبة الأمراء إلى الصعيد مبلغ خمسة وسبعون ألف ريال، وتعيين أُجرَة على بيوتهم، وقرر عليهم خمسمائة كيس تُوزع على أفرادهم[٢].

يتبين مما ذكره الجبرتي أن حسن باشا أراد معاقبة المؤيدين للمماليك والذين هربوا معهم إلى الصعيد، سواء كانوا مسلمين أم نصارى، فكما شدَّد على زوجات أمراء العصاة واستخرج أموال أزواجهم، شدَّد على بعض نساء إبراهيم الجوهري الذي كان يؤيد المماليك في ظلمهم الأهالي وفرض الضرائب على الناس، فقصد من هذا الإجراء تأديب المعلم إبراهيم الجوهري؛ لانحيازه وهروبه مع العصاة المعارضين للدولة العثمانية، وإسقاط ذلك على الأقباط بصفة عامة[٣].

لم يكن ما فعله حسن باشا اضطهادًا لطائفة مخالفة للدين الإسلامي، والدليل على ذلك أنه لم يشدد على اليهود المصريين أو غيرهم من الملل الأخرى في مصر، إنما شدَّد على المسيحيين المقربين للمماليك الفارين إلى الصعيد كالمعلم إبراهيم الجوهري وأخوه جرجس، وعلى المعلم واصف أحد الكُتَّاب المشهورين، فكان تشديده عليهم وتتبع أموالهم مثل تشديده على المماليك العصاة وتتبع أموالهم[٤]. وهو في ذلك يُنفذ سياسة الدولة الرامية إلى الضغط على العصاة عن طريق مصادرة أموالهم، والقبض على نسائهم ليعودوا إلى طاعة الدولة، غير ناظرٍ إلى الملة، بل كان يتعامل مع المصريين على أساس تأييدهم للدولة أو عصيانهم لها.

---

[١] الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص ١٧٠.
[٢] الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص ١٧٥، ص ١٧٧.
[٣] محمد عفيفي: الأقباط في مصر في العصر العثماني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٢م، ص ٧٨.
[٤] سحر علي حنفي: مرجع سابق، ص ٣٣٤.

أما المؤرخون العثمانيون فلم يذكروا أية معلومات بشأن هذه الواقعة، فلم يذكر جودت باشا -الذي نقل عن واصف- شيئًا عن هذا الأمر، كما لم يذكر واصف أفندي المعاصر لهذه الفترة والتي أرخ للحملة من أولها إلى آخرها، ويبدو أنهما لم يريدا الحديث عن ذلك أو عن نقد حسن باشا رجل الدولة المرسل من طرف السلطان، أو لم يريدا إحداث فتنة طائفية في مصر تجعل لدول أوروبا ذريعةً في التدخل ضدهم، خاصة وهم في حالة حرب معها. كما لم يكن هناك دور فعال لقناصل الدول الأوربية والتجار الأوربيين في هذه الفترة يمكنها أن تستنكر مثل هذه الأفعال.

لم يكن حسن باشا الجزائرلي ـــ إحقاقًا للحق ـــ يتعامل مع مسيحي مصر من ناحية الدين أو الطائفة، وإنما كان يتعامل معهم بوصفهم مصريين لهم دورٌ كبير في الوقوف مع متغلبة المماليك ودعمهم ضد الدولة العثمانية صاحبة الحق في الطاعة، وموافقتهم في ظلم الرعايا، وفرض الضرائب الباهظة عليهم، فيبدو أن حسن باشا نما إليه وقوفهم مع المماليك في المعارك الدائرة بينه وبينهم، مما جعله يصنع هذا الصنيع، وقد ذكر الجبرتي في تاريخه أن بعض المسيحيين هربوا مع المماليك إلى الصعيد. وهذا يعني أنهم اتفقوا معهم؛ لهذا أراد حسن باشا الضغط عليهم عن طريق مصادرة أموالهم.

وفرض حسن باشا أيضًا تفريدة (ضريبة) جديدة على بلاد الأرياف؛ قسمها إلى ثلاثة أقسام: أعلى: خمسة وعشرون ألف نصف فضة، وأوسط: سبعة عشر ألفًا، وأدنى: تسعة آلاف. وكل ذلك من أجل جمع المال، وأرسل الأمراء المُعيَّنين لجمعها من البلاد المختلفة[١]. وفي ٢٠ ذي القعدة ١٢٠١هـ/ ٣ سبتمبر ١٧٨٧م شدَّد حسن باشا على أمراء المماليك الموجودين بالقاهرة في جمع المال الميري، وعاملهم بقسوة؛ لقرب سفره بعد عيد الأضحى.

انتقد القلعاوي والجبرتي فرضَ حسن باشا الضرائب على الأهالي بعد إلغائها، وإن كان قد ذكر أنها عادت بإشارة إسماعيل بك المملوكي، فإنه ذكر أن الأهالي تغيرت نحو حسن باشا وتمنوا زواله، وأن العثمانيين يحبون الدنيا[٢]. فموقف الجبرتي نابعٌ من نظرته للحملة من منظور اجتماعي صِرف، وتأثيرها على المجتمع المصري.

أما جودت باشا فرأى أنَّ أزمة مالية كانت في مصر، واحتياج حسن باشا إلى الإنفاق على عساكره، وجمع الخزينة المصرية وأخذها معه إلى الدولة، والضرائب التي فرضها وأعادها من جديد -بإشارة إسماعيل بك- كانت من أجل جمع المال للدولة، فالدولة في حالة حرب وتحتاج إلى هذه الأموال، ولم يستطع نظام مصر إلغاء جميع التكاليف والضرائب وفقًا

(١) الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص٢١٣.
(٢) الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص٢٢٢، القلعاوي: مصدر سابق، ورق ٤٥ ب.

لرغبة الأهالي في ذلك الوقت، لكن يمكن القول: إن الإصلاح الذي نهض به حسن باشا في مصر كان ناقصًا؛ مما أدى إلى حدوث مثل هذا الأضرار، لكنه لم يكن نابعًا من تقصير القبطان باشا، وإنما تسبب فيه ضيق الوقت والمال، كما ذكر أن الحملة حققت منافع كثيرة للدولة في إعادة ولاية مصر لها من جديد، وتحصيل المال الميري منها وهو ٢٤ ألف كيسة الذي ساعد كثيرًا في الإنفاق على حربها ضد روسيا[١]. وهكذا برَّر جودت باشا معاملة حسن باشا وطريقته في جمع الأموال، وأظهر أنه غير مسؤول عن ذلك.

إصلاحات حسن باشا الجزائرلي في مصر:

قضى حسن باشا الجزائرلي في مصر قريبًا من ثمانية أشهر، حقق فيها نجاحاتٍ مهمةً للدولة العثمانية، وأجرى بعض الإصلاحات الإدارية التي أعادت ولاية مصر من جديد لسلطة الدولة العثمانية بعد أن كانت في يد المماليك المتغلبة، ويمكن أن نتتبع هذه الإصلاحات في ثلاث مجالات متعددة: سياسيًّا، واقتصاديًّا، واجتماعيًّا:

المجال السياسي: استطاع حسن باشا الجزائرلي إبعاد إبراهيم بك ومراد بك عن القاهرة، وأجبرهما على الإقامة بالصعيد، ووضع مكانهما في إدارة شؤون القاهرة: إسماعيل بك وحسن بك الجداوي، وأعاد نفوذ السناجق السبعة بإشراكهم في إدارة المقاطعات المختلفة، مثلما جعل إدارة جمرك الإسكندرية والعائد منه إلى أوجاق اليكيجرية، كما جرَّد مشايخ العربان من وظيفة جمع الضرائب التي حصلوا عليها في زمن علي بك المملوكي، وعهد بها إلى أحد السناجق العثمانية الموجودة في القاهرة، بهدف إعادة سلطة السناجق في مصر لتحل محل العربان وأمراء المماليك، وعيَّن "مصطفى قبطان" محافظًا على الإسكندرية، وتركَ ١٥٠٠ جنديًّا من العساكر العثمانية مع المهمات والذخيرة تحت قيادة كتخداه "إسماعيل أغا" لتنظيم الأمن وتحقيق الاستقرار في مصر، وأخذَ رهائنَ من أمراء المماليك إلى إستانبول كدليل على ضمان تبعيتهم للدولة، وعدم إعلان العصيان ضدها مرة أخرى، كما أخذ حُجَّة مُوثَّقة بتوقيعات المشايخ ووجهاء مصر ليضمن وقوفهم ضد عصاة المماليك، ومتابعة إرسال مطالب الدولة بانتظام.

المجال الاقتصادي: أعاد حسن باشا إرسال الخزينة الإرسالية من جديد لمركز الدولة، بعد أن منع المماليك إرسالها منذ عام ١١٩٣هـ/ ١٧٧٩م[٢]، فقد أخذ معه من مصر في عودته إلى إستانبول ٢٤ ألف كيسة، كان لها دورٌ كبيرٌ في الإنفاق على حرب الدولة ضد روسيا[٣]. وضم إلى هذه الخزينة فيما بعد عوائد مقاطعات جلود والمطرية وخيار شنبر. وحدد كمية

---

[١] جودت باشا: مصدر سابق، ج٣، ص ٣٢٣.

[٢] S. J. Shaw, The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt: ١٥١٧-١٧٩٨, Princeton-New Jersey ١٩٦٢, s.٣٠٠.

[٣] جودت باشا: مصدر سابق، ج٣، ص٣٢٣.

الذخائر التي ستُرسل من مصر إلى الكيلار العامرة سنويًّا على النحو الآتي: ٣٦ ألف كيلو أرز، ٢٥٠٠ كيلو عدس، ٣٢,٤٥٠ وقية سكر، وإن لم تتوفر تلك الذخائر بمصر فعليها أن تشتريها الخزينة المصرية، وتُرسِلها للدولة سنويًّا[١]، ومنع احتكار البضائع، ووضع تسعيرة للأصناف المختلفة، وحدد ٣٢٣ كيس أقجة، أي ما يعادل ١٧٠ ألف قرش وفائض هذا العائد خاص بالجيب السلطاني، يُرسَل سنويًّا إليه[٢]، ونظّم إرسال لوازم الأسطول وهي: الاستوبي[٣] والاسباولي[٤] والفتيل المصري سنويًّا[٥]، وسلَّم إلى الطوبخانه العامرة ١٦١,٧٥٠ قرش من مقاطعات (جلود والمطرية وخيار شنبر)، وأعاد إرسال المهمات والذخائر إلى الحرمين الشريفين من جديد، بعد أن منع إرسالها المماليك، كما جعل إدارة جمرك الإسكندرية والعائد منه إلى أوجاق اليكيجرية.

المجال الاجتماعي: أعاد حسن باشا للأشراف هيبتهم المفقودة في مصر، وطلب من الجميع احترامهم وتقديرهم، ويبدو أن مكانتهم في مصر قد تدهورت فترة أمراء المماليك، فمنع الناس من مضايقتهم، وأبطل شراكة العسكر لأهل الحِرَف في مصر، الأمر الذي أدى إلى دفع كثير من المظالم الواقعة على الأهالي، وأجرى بعض الإصلاحات الخاصة بالمسيحيين في مصر من ناحية الزيّ، وشراء العبيد وخلافه، كما أخرج من القاهرة البطَّالين –الذين لا عمل لهم، الذين قدموا إليها من الريف في ذلك الوقت، وذلك محاولةً منه في تخفيف الأزمة الاجتماعية والاقتصادية الحاصلة في القاهرة.

عودة حسن باشا إلى إستانبول:

إن كان حسن باشا الجزائرلي قد حقّق نجاحاتٍ مهمةً في هذه الفترة على المماليك، فإنه لم يتمكن من القضاء عليهم نهائيًا؛ وذلك لضيق وقت الحملة، وعدم كفاية الإمكانات، وإعلان الدولة العثمانية الحرب على روسيا في ٣ ذي القعدة ١٢٠١هـ/ ١٧ أغسطس ١٧٨٧م. لهذا توجب عليه أن يسارع في الاتفاق مع أمراء المماليك، ليعود سريعًا للمشاركة في حرب الدولة ضد روسيا، بالإضافة إلى ذلك كان الباب العالي قد أرسل إليه "حسين أغا" لإخباره بهذه الأوضاع[٦].

أمام هذه التطورات عقد حسن باشا ديوانًا في القاهرة يوم الخميس ١٤ ذي الحجة ١٢٠١هـ/ ٢٨ سبتمبر ١٧٨٧م، حضره عابدي باشا والي مصر، والمشايخ، وسائر الأمراء،

---

[١] الأرشيف العثماني، تصنيف A.{DVN.MSR.١١/٢١٢.

[٢] الأرشيف العثماني، تصنيف A.{AMD.٢٢/٨٥.

[٣] استوپى- İstopi أو ÜSTÜPÜ: نوع من الكتان، يوضع بين صفيح السُّفن والخشب المدهون بالعازل؛ لمنع تسرب المياه إليها.

[٤] اسپاولى- İspavlı: كلمة إيطالية، وهو نوع من الحبال الضخمة التي يستخدمها البحارة في السُّفن.

[٥] الأرشيف العثماني، تصنيف A.{DVN.MSR.١١/٢١٢.

[٦] Ali Karahan, Kaptan-ı Derya Cezayirli Gazi Hasan Paşa'nın Mısır Seferi, Marmara Türkiyat Araştırmaları Dergisi, Cilt ٤, Sayı ١, ٢٠١٧, s.٨٠-٨١.

مجلة كلية الآداب بالوادي الجديد- مجلة علمية محكمة- ديسمبر ٢٠٢٣

وذكر لهم فيه الأوامر القادمة له من الدولة، وهي: العفو عن إبراهيم بك ومراد بك شرط البقاء في مصر العليا (الصعيد)؛ على أن يكون إبراهيم بك في قنا، ومراد بك في إسنا، ومنع دخولهم القاهرة، وذهاب حسن باشا إلى إستانبول ليحارب مع الدولة ضد روسيا(١).

ولكي يضمن حسن باشا تطبيق إبراهيم بك ومراد بك شروط الاتفاقية بينه وبينهم، ويضمن ألا يأتون إلى القاهرة بعد خروجه منها؛ طلب من الحاضرين في المجلس من وجهاء القاهرة أن يضمنوا أمراء المماليك الموجودين في الصعيد، لذا طلب منهم كتابة حجة شرعية من أهم ما جاء بها: أن يتعهدوا له فيها بمنع إدخال إبراهيم بك ومراد بك ومماليكهم إلى القاهرة، وإرسال الخزينة الإرسالية والحلوان إلى الدولة، وعدم التعدي على منازل المماليك الهاربين وعيالهم وأولادهم(٢). وأخذَ حسن باشا "الحجة الشرعية" المُوقّع عليها بخط قاضي مصر "حافظ عمر أفندي"، ومعها المحضر الذي يدل على كفالة هؤلاء الحاضرين لأمراء المماليك(٣). وبهذا أراد حسن باشا أن يؤسس نظامًا قويًا في مصر قبل خروجه منها، وأن يعيد سلطة السناجق العثمانية لتحل محل بكوات المماليك في إدارة الولاية.

ترك حسن باشا "الكتخدا إسماعيل أغا" في مصر لتحقيق الأمن مع الوالي عابدي باشا، وأبقى معه ١٥٠٠ جندي من الأرناؤوط لمساعدته، مع ترك مهمات وذخيرة، وجمع المال الميري من الأهالي، وأخذ معه خمسة رهائن من أمراء المماليك، هم: عبد الرحمن بك الإبراهيمي، وعثمان بك المرادي المعروف بالطنبرجي، وحسين بك شفت، وسليمان كاشف قنبور، وحسن كتخدا الجربان(٤)، وخرج بأسطوله من القاهرة يوم السبت ٢٣ ذي الحجة ١٢٠١هـ/ ٦ أكتوبر ١٧٨٧م، فوصل الإسكندرية يوم الجمعة ٢٩ ذي الحجة، ثم انتظر عشرة أيام فيها، وتحرك يوم الإثنين ٩ محرم ١٢٠٢هـ/ ٢١ أكتوبر ١٧٨٧م إلى إستانبول مصطحبًا معه أسرى المماليك(٥).

لم تصرح المصادر العربية المعاصرة قط عن قيمة الأموال التي أخذها حسن باشا الجزائرلي من مصر، إنما تفرّدت بذكرها الوثائق والمصادر العثمانية؛ فجاء في وثيقة عثمانية أن حسن باشا أخذ من مصر عند خروجه، من جمارك الإسكندرية وتوابعها، ومن مقاطعة

(١) الأرشيف العثماني: تصنيف A. DVN. MSR. ١١/٥١، الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص٢٢٢.
(٢) الأرشيف العثماني: تصنيف C. ZB. ٢٦/ ١٢٥٦/٣، C. ZB. ٢٦ /١٢٥٦/٤، ٢٠ ذي الحجة ١٢٠١هـ.
(٣) أنوري سعد الله: تاريخ أنوري، مصدر سابق، ورق ٧٨ب – ٨٠ب. وللنسخة التركية يُنظر: Filiz Bayram, Enveri tarihi Üçüncü Cild Metin ve Değerlendirme, Yayınlanmamış Doktora Tezi, İstanbul Üniversitesi, İstnabul ٢٠١٤, s.٣٣٤- ٣٣٧.
(٤) إسماعيل الخشاب: مسالك التبيان، مخطوط، ورق ١١٠أ، الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص٢٢٢.
(٥) الأرشيف العثماني: تصنيف C.DH.٣١٣/١٥٦١٦. ذكرت الوثائق العثمانية الأسرى على هذا النحو: عثمان بك وعبد الرحمن بك وحسين بك وسليمان كاشف وحسن كاشف وأتباعهم وخدمهم وهم أكثر من ٣٠ نفر. وطلبوا من الدولة صرف راتب شهري لهم قدره ٥٠٠ قرش. يُنظر: الأرشيف العثماني: تصنيف C.ML.٤٦/٢١٢١، ١١ ربيع الأول ١٢٠٢هـ.

المطرية[١] ومقاطعة جلود[٢] ومقاطعة "خيار شنبر"[٣]: مبلغًا قدره ٣٢٣ كيس ونصف من النقود، سلمها جميعًا إلى الضربخانه العامرة[٤]، وذكر حسن باشا في تقريره الذي رفعه للسلطان أن هذا المال بخلاف مال الإرسالية التي ستأتي من مصر سنويًا، فهو من جمارك الإسكندرية والمقاطعات المذكورة سابقًا، وسيصل هذا المبلغ سنويًا إلى الجيب السلطاني[٥]. وذكر إسماعيل حقي في تاريخه: أنه بخلاف هذا المبلغ أخذ ٢٤ ألف كيسة، نفعت الدولة العثمانية كثيرًا في حربها مع روسيا[٦].

آثار الحملة على المصريين:

عانى المصريون كثيرًا قبل مجيء حسن باشا الجزائرلي إلى مصر من ظلم المماليك وإفسادهم في البلاد، ووجدوا فيه الخلاص، وكان في نظرهم بمثابة "المهدي المنتظر"، وعندما نهب أتباع المماليك البلاد، وحرقوا قرية "وردان"، ضجّت الأهالي وذهبت إلى معسكر حسن باشا تشكوه صنيع المماليك؛ فطيّب خواطرهم، وكتب لهم فرماناً برفع الخراج عنهم سنتين[٧]. وعندما وعندما خفّض حسن باشا الضريبة على الأراضي، وقرر أن يكون مال الفدان هو: سبعة أنصاف ونصف فضة (٧,٥ فضة) كادت الناس تطير فرحًا من السعادة، خاصة الفلاحين، ومالت قلوبهم إليه، وانحرفت عن اتباع المماليك، وتمنَّوا زوالهم كما جاء في تاريخ الجبرتي[٨]. وكان من نتائج هذه السياسة الحكيمة: مساعدة أهالي رشيد له ضد المماليك، ووقوفهم معه في حربه ضدهم.

---

[١] مقاطعة المطرية: وضع حسن باشا الجزائرلي قواعد لصيد السمك في بحيرة المطرية القريبة من مصر، وحدد عليها ضرائب تُدفع للخزينة المصرية، وأوجد مقاطعة جديدة تحمل هذا الاسم، وعلى الملتزم الذي يدير هذه المقاطعة دفع ضريبة "مال الخراج" عنها للخزينة المصرية، لكن استولى عليها أمراء المماليك بعد ذلك ولم يدفعوا خراجًا عنها للخزينة المصرية، لهذا تم إلغائها. يُنظر: Shaw, Ottoman Egypt ١٥١٧- ١٧٩٨, s. ٤٧

[٢] ضريبة جلود: هي ضريبة على دباغة الجلود وزاد حسن باشا ضريبة الكشوفية الكبير التي كانت تؤخذ من أمين السلخانة. يُنظر: Shaw, Ottoman Egypt ١٥١٧- ١٧٩٨, s. ٤٧

[٣] خيار شنبر: نوع من الخيار (القثاء) كان ينمو بوفرة في مصر، ويصدر لكل أنحاء العالم من مصر، وكان والي مصر قد أعطى حق بيعه إلى تجار اليهود مقابل دفع مال للخزينة سنويًا، ثم أرسلت الحكومة العثمانية وكيلًا عنها من إستانبول لمباشرة مقاطعة خيار شنبر، وكانت تدر هذه المقاطعة دخلًا كبيرًا للدولة بلغ عام ١٠٩٤هـ/ ١٦٨٣م ٢٢٥ ألف بارة. يُنظر: ليلي عبد اللطيف: مرجع سابق، ص ٣٣٥.

[٤] الأرشيف العثماني: تصنيف A.{AMD.٢٢/٨٥، طيلساني زاده حافظ عبد الله أفندي (عبد الله لبيبة)، مصدر سابق، ورق ١٠٦ ب. وقد ذكر أنه أخذ ثلاث أمراء فقط رهائن.

[٥] الأرشيف العثماني: تصنيف A.{AMD.٢٢/٨٥. ولتصنيف هذه الأموال التي أخذها من المقاطعات في مصر يُنظر: Stanford J. Shaw, The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt, ١٥١٧-١٧٩٨, s.٣٠١-٣٠٢. وقد جاء أنه أخذ من مقاطعة المطرية والالتزام ومال الخراج ٢٠٠ ألف بارة، ومن مال الخراج للوالي ٦ مليون بارة، ومن مقاطعة كشوفية كبير وأمين خيار شنبر ٤٠٠ ألف بارة، ومن مقاطعة كشوفية كبير ومقاطعة أمين السلخانة ٢٠٠ ألف بارة ومجموع ما أخذه من هذه المقاطعات يساوي ٦مليون و٨٠٠ ألف بارة. وهذه الأموال ذهبت إلى خزينة الجيب السلطاني وغير الخزينة الإرسالية التي أخذها من مصر.

[٦] İsmail Hakkı Uzunçarşılı, a.g.e, c.٥, s. ٥١٨.

[٧] الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص ١٥٨.

[٨] الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص ١٥٩.

أدت الحروب بين حسن باشا والمماليك إلى رخص الأسعار واستقرارها في القاهرة، فبعد هزيمة المماليك في فوة، واستعدادهم للهروب إلى الصعيد؛ باعوا الغلال المخزونة لديهم، مما ترتب عليه رخص أسعار هذه الغلال -ولو لفترة محدودة-[١]، وعندما اشتكى الناس من غلاء الأسعار، وطلبوا التوسط من الشيخ العروسي، وكلَّم الشيخ حسن باشا في ذلك، فأحضر الأغا المحتسب والمعلمين، وطلب منهم عمل تسعيرة للأصناف، وأمر بمعاقبة من يخالف ذلك؛ لأنه كان يجهل عادات المصريين، وحدَّد أسعار الأصناف، وأمر بالعمل بهذه التسعيرة الجديدة[٢]. يتبين من هذا أن حسن باشا قدَّم مصلحة الرعية التي أوصاه بها السلطان عبد الحميد الأول، من رفع الظلم الواقع عليهم، وتطبيق قانون السلطان سليمان القانوني في مصر مرة أخرى، ومحاولة إرضاء الرعية بشتى الطرق، ومعاقبة المماليك على عصيانهم.

وعند وصول حسن باشا القاهرة استبشر الناس وفرحوا بقدومه، واطمأنوا لوصوله، وعادت الحياة إلى طبيعتها في القاهرة بعد هروب المماليك إلى الوجه القبلي[٣]. ولم يتوانَ حسن باشا عن تطبيق العدل في مصر والوقوف بجانب الرعية -بحسب وصية السلطان-، فعندما سمع بتعدي عساكره على النساء أمر في الحال بضرب أعناقهم: فقتل ستَّةً منهم، كما أبطل شراكة العسكر لأهل الحِرَف، ومنع جلوس عساكره على المقاهي وفي الحمامات؛ لكي لا يتعدوا على الأهالي مرة أخرى، فارتاح الناس له، واطمئنوا إليه [٤].

ولم يكن للحملة تأثيرًا على الرعية أو عامة الناس فقط، بل كان لها أثرٌ كبير أيضًا على العلماء ومشايخ الأزهر، وبروز دورهم الفعال في التوسط للصلح بين المماليك وحسن باشا من ناحية، وبين والي مصر وحسن باشا من ناحية أخرى، فأكدت الحملة الدورَ المهم الذي أدَّاه علماء الأزهر في ترحيبهم بالحملة العسكرية ومساندتها بهدف الخلاص من قمع المماليك، وإن اختلف دورهم عن دور العامة؛ فقد عانى العلماء من أعمال العنف والابتزاز، وأضمروا الكراهية للمماليك العصاة، لكنهم مثَّلوا دور الوسيط بين عصاة المماليك وحسن باشا؛ حفاظًا على الرعية من تعديات المماليك عليهم، ومن الآثار السيئة التي ستخلفها الحروب، فتوجهت إرادتهم إلى القضاء على المماليك من ناحية، والحفاظ على الرعية من ناحية أخرى.

استشعر حسن باشا هذا الدور الرئيس لمشايخ الأزهر: فأحسن استقبالهم في رشيد، وحثهم على الوقوف بجانبه ضد المماليك؛ فأعربوا عن تأييده، لكنهم اعتذروا عن مشاركتهم في

---

[١] الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص ١٦٠.
[٢] الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص ٢٠٥.
[٣] الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص١٦٨.
[٤] الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص ١٧١.

إعلان بيان ضد العصاة؛ خوفًا من بطش المماليك، كما وقفوا ضد حسن باشا عندما أراد بيعَ الأحرار وأمهات أولاد المماليك الفارين؛ مما جعله يرجع في قراره هذا[١].

ومن آثار الحملة أيضًا على التجار المصريين: السماح لهم بالتجارة بحُرِّية، وعدم التعدي على أموالهم وبضائعهم كما كان يفعل المماليك معهم سابقًا، وظهر ذلك جَلِيًّا في معاملات العساكر العثمانية: فإنَّ الجند إذا اشترت من التُّجار شيئًا دفعت ثمنه كاملًا غير منقوص[٢]، وعندما طلب حسن باشا من تجار البن والتوابل والتجار الفرنج والأقباط سُلْفةً للإنفاق على إعداد قافلة الحج وعلى الحملات التي أرسلها لحرب المماليك في الصعيد: أعطاهم سنداتٍ (صكوك) تضمنُ حقوقَهم، وعندما حصل على فائضٍ من المال أعاد لهم أموالهم كاملة، مما أثار تعجب الجبرتي؛ لأن المماليك كانوا يأخذون منهم قروض إجبارية ولا يسددونها لهم[٣]. وأعجب من ذلك وقوف حسن باشا إلى جانب التجار في قضية جمرك البُهَار، حينما كان لوالي مصر ضريبة من جمرك البهار قدرها ٤٤ ألف فرانسة[٤] عوائد خاصة به، أخذها منهم إبراهيم بك مدةَ عمله قائمقامًا عن والي مصر يَكَن محمد باشا، وعندما طالبهم بها سكتوا خوفًا من إبراهيم بك، لكن عندما أصر على المطالبة بها بعد خروج المماليك إلى الصعيد أخبروه بالحقيقة، فعقد حسن باشا المحكمة، وحضر المشايخ وحكموا لصالح التجار[٥]. وهذا دالٌ على إقامة حسن باشا العدل وقتَ مُقامِه بمصر، وأن الذي أوقع الظلم بالتُّجار والمسيحيين والأهالي وسائر الرعية إنما هم متغلبة المماليك.

يتبين مما سبق: أنَّ هذه الحملة إنما كانت ضد عصاة المماليك، وأن هدفها الرئيس: القضاءُ عليهم، وإخراجُهم من مصر، وإعادة النظام للولاية؛ لتحقيق راحة الناس وإقامة العدل، وضبط أمور ولاية مصر من جديد، وإن تغيرت نظرة الناس لحسن باشا في نهاية الحملة بسبب عدم نجاحه في القضاء نهائيًّا على المماليك، ولما فرضه إسماعيل بك المملوكي من ضرائب جائرةٍ عليهم، وتضررهم من ذلك، فلم يكن حسن باشا هو المسؤول الرئيس عن حالة الانهيار التي أصابت مصر قرب نهاية حملته، أو عن تغيُّر نظرة الناس إلى حسن باشا وحملته على مصر.

---

[١] الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص ١٧٤.
[٢] الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص ١٧٦.
[٣] الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص ١٧٨، ١٨٥.
[٤] فرانسة أو ريال فرانسة: ريال ذهب كان سعره طيلة العصر العثماني غير ثابت بين ارتفاع وانخفاض، وذكر الجبرتي أنه كان يُصرف في سنة ١٢٠٣هـ/ ١٧٨٩م بمائة نصف فضة، وفي عام ١٢٣١هـ/ ١٨١٦م ارتفع إلى ٣٦٠ نصف فضة. يُنظر: عبد الرحمن فهمي: النقود المتداولة أيام الجبرتي، ضمن كتاب: "عبد الرحمن الجبرتي دراسات وبحوث"، القاهرة ١٩٧٦م، ص ٥٧٨.
[٥] الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص ١٧٩- ١٨٠.

مجلة كلية الآداب بالوادي الجديد- مجلة علمية محكمة- ديسمبر ٢٠٢٣

نتائج حملة حسن باشا الجزائرلي على مصر:

لم تكن حملة حسن باشا الجزائرلي على مصر مجرد حملة لاستعادة النظام أو المطالبة بحقوق الدولة المالية المتأخرة فحسب، وإنما كانت حملةً ضمن الإطار الإصلاحي الذي انتهجته الدولة في ذلك الوقت من إعادة فرض السيطرة المركزية التي تفلتت منها في العقود الأخيرة في بعض الأقاليم؛ نتيجة للحروب مع روسيا، وبعض الاضطرابات الأخرى في الأناضول والبلقان، فكانت حملة مصر واحدة من سلسلة حملات أرسلتها الدولة، واضعةً على رأسها ذلك القائد ورجل الدولة المخضرم حسن باشا الجزائرلي، الذي استطاع قمع تمرد الشيخ ظاهر العمر في الشام، واستعاد المورة، وقضى على عصيان المتمردين الألبان، وطردهم منها في عام ١١٩٢هـ/ ١٧٧٨م، ثم كانت حملته على مصر عام ١٢٠٠هـ/ ١٧٨٦م للقضاء على النفوذ المملوكي بقيادة إبراهيم بك ومراد بك، ومع أنها لم تتمكن من إزاحة المماليك بسبب بدء حرب جديدة مع روسيا، لكنها على الأقل فرقت جموعهم من أجل إضعاف شوكتهم، وأعادتهم إلى طاعتها من جديد[١].

لم يكن القبطان حسن باشا الجزائرلي المسؤول عن حالة السخط والانهيار التي أصابت مصر في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي، بل كانت هنالك حالات من القحط والجفاف والطاعون المتتابعة التي أصابت البلاد منذ عام ١١٩٧هـ/ ١٧٨٣م، فضلًا عن الحروب التي اندلعت بين المماليك في القاهرة والصعيد حول السيطرة وإظهار النفوذ، مما أسفر عن ظلم الأهالي، وفرض الضرائب الباهظة عليهم، ونهب بيوت التجار وعامة الناس، فإن كان حسن باشا قد أصلح بعض الشيء في الولاية، فلم يستطع إكمال الإصلاحات؛ لاستدعاء الدولة له من أجل الاستعانة به في حربها مع روسيا[٢].

رأت المصادر العربية –المعاصرة للحملة– أن حملة حسن باشا الجزائرلي على مصر لم تحقق شيئًا، ولم تقضِ على المماليك، وزادت من الضرائب على الشعب، حيث ذكر القلعاوي في تاريخه عن الحملة قائلًا: "ولم يحصل للإقليم المصري بمجيء حسن باشا القبطان ثمرةً ولا منفعةً؛ بل تقررت ضريبة "رفع المظالم"[٣] التي كانت تُقبَض كالسرقة من خوف اطلاع الدولة

---

[١] إدوارد شيفرد كريسي: تاريخ الأتراك العثمانيين، ترجمة: أحمد سالم سالم، دار جامعة حمد بن خليفة للنشر، الطبعة الأولى، الدوحة، قطر ٢٠١٩م، ص ٤٩٧-٥٣١؛ Shaw, History of the Ottoman Empire and modern Turkey, Vol. I, s. ٢٥٣-٢٥٤.

[٢] أندريه ريمون: مرجع سابق، ج٢، ص ١٠٨٥.

[٣] رفع المظالم: ضريبة من ضرائب مال الكشوفية كانت تجمع من الفلاحين، وكان قد قررها محمد بك أبو الذهب لكي تحل محل المظالم الهمجية. يُنظر: القلعاوي: مرجع سابق، ص ٢٨٨.

على ذلك، وأحدثها محمد بك أبو الذهب، وكذلك ضريبة "مال التحرير"[١] التي أحدثها مراد بك، ومن حينه صار يقبض ميري، ولم ترتفع مظلمة عن الإقليم بمجيئه"[٢].

ويتضح من هذا الكلام السابق مدى التحامل الكبير على هذه الحملة العثمانية؛ لأن القلعاوي نفسه ذكر أن الذي أحدث هذه الضرائب هو محمد بك أبو الذهب ومراد بك وهما مملوكان، وإن كان حسن باشا قد ألغى الضرائب عند وصوله؛ فهذا من حُسن سياسته التي اقتضتها الضرورة ذلك الوقت، لكن الحال تغير عند اقتراب عودته إلى مركز الدولة للمشاركة في حربها ضد روسيا؛ إذ توجب عليه تحصيل الأموال المستحقة والمتأخرة التي هي في الأساس حق السلطان المفروض في ولاية مصر، ولم يبتدع هو تلك الضرائب التي كانت موجودة بالفعل قبل وصول حملته، واستمرت بعد خروجه في عهد المماليك الذين ترك لهم سلطة البلاد.

نقل الجبرتي عن القلعاوي رأيه في هذه الحملة، ولم يكتفِ بمجرد النقل بل زاد في تعليقه ونقده للحملة فقال: *"ولم يحصل من مجيئه إلى مصر وذهابه منها إلا الضرر، ولم يبطل بدعة، ولم يرفع مظلمة، بل تقررت به المظالم والحوادث، فإنهم كانوا يفعلونها قبل ذلك مثل: السرقة، ويخافون من إشاعتها وبلوغ خبرها إلى الدولة فينكرون عليهم ذلك، وخابت فيه الآمال والظنون، وزاد في المظالم والتحرير، لأنه كان عندما قدم أبطل "رفع المظالم"، ثم أعادها بإشارة إسماعيل بك، وسماه "التحرير"، ولو مات حسن باشا بالإسكندرية أو رشيد، لهلك عليه أهل الإقليم أسفًا، وبنوا على قبره مزارًا وقبة وضريحًا يُقصَد للزيارة"*[٣].

يدل كلام الجبرتي على نقله من المصادر العربية -دون الإشارة إليها- فهو نقل رأي القلعاوي السابق في الحملة، وزاد أشياء من عنده، وعند حديثه عن رفع حسن باشا المظالم والضرائب عن الأهالي عند مجيئه، أرجع ذلك إلى خداع حسن باشا ليجذب قلوب العامة إليه، حيث قال: "وذلك من نوع الخداع والتحايل وجذب القلوب"[٤].

يظهر تحامل الجبرتي بعض الشيء على حسن باشا، ونظره إلى المسألة من زاويةٍ واحدةٍ؛ فعندما أرسلت الدولة العثمانية حسن باشا إلى مصر كانت رغبتها الأولى: إعادة الاستقرار في الولاية، لكنه واجه صعوبات بالغة في إخضاع المماليك، فكلما جهَّز جيشًا لمحاربتهم فرُّوا إلى الصعيد هربًا، وإن كان قد انتصر عليهم في عدة معارك، لكنه لم يتمكن من القضاء على شوكتهم بشكل كامل؛ الأمر الذي اضطره إلى فرض مزيد من الضرائب للإنفاق

---

[١] مال التحرير: ضريبة قررها إبراهيم بك المملوكي لنفس أغراض ضريبة رفع المظالم، وكانت تجمع من قرى الفلاحين. يُنظر: القلعاوي، مرجع سابق، ص ٢٨٩.
[٢] القلعاوي: مصدر سابق، ورق ٤٥ ب.
[٣] الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص ٢٢٢، ٢٢٣.
[٤] الجبرتي: مصدر سابق، ج٢، ص ١٥٩.

على هذه الحملات التي كلَّفته كثيرًا، فلم يستطع إعادة الأوضاع إلى نصابها؛ لضيق الوقت، وقلة المال، وكثرة النفقات، واستدعاء الدولة له ليشارك في حربها ضد روسيا، فلم تسعفه الظروف وعاندته الأحوال[١].

لهذا كانت نظرة المصادر العربية للحملة من منظور تأثيرها في المجتمع المصري الذي عانى منذ مئات السنين من ظلم أمراء الممالك وتعديهم بالنهب والسرقة وفرض الضرائب الباهظة، فكانوا يأملون في حسن باشا أن يرفع عنهم هذه المظالم والضرائب جملة واحدة، وتخليصهم من المماليك الذين أذاقوهم الويلات، وعندما لم يجدوا أن ذلك قد تحقق ـــ ولم يكن في قدرة حسن باشا المحكوم بضيق الوقت والمال في ذلك الوقت ـــــ راحوا ينتقدون حملته، ويرمونها بكل نقيصة.

أما المصادر العثمانية فنظرت إلى الحملة نظرةً أكثر شمولية، فذكرت للحملة أسبابًا، وأهدافًا ينبغي تحقيقها، أما الأسباب: فظلم المماليك للأهالي، ومنع إرسال الخزينة الإرسالية للدولة، والمهمات والذخائر للحرمين الشريفين، وعقد المعاهدات مع الدول الأجنبية من دون إذن الدولة، والتصرف باستقلالية داخل مصر، وهذه أدنى حقوق الدولة العثمانية التي لها حق السيادة على إحدى الولايات التابعة لها وهي ولاية مصر، فحتى ذلك الوقت أي من عام ٩٢٢هـ/ ١٥١٧ إلى ١٢٠٠هـ/ ١٧٨٦م لم تكن مصر صاحبة السيادة، بل كانت ولاية عثمانية للسلطان حقٌّ فيها، والقانون العثماني يسري نافذًا في الولاية.

أما الأهداف الواجب تحقيقها: فمنع ظلم أمراء المماليك للأهالي، وإعادة إرسال الخزينة والذخائر للدولة، ومنع اتصال أمراء المماليك بالدول الأجنبية لأنهم تابعين للدولة وليسوا حكامًا مستقلين يمكنهم عقد معاهدات أو مراسلات مع دول أجنبية بينها وبين الدولة العثمانية عداوات وحروب، وإعلان الطاعة والخضوع للدولة العثمانية.

وعدم تحقُّق هذه الأهداف جميعها بصورة كاملة لا ينقص من الجهد الذي بذله حسن باشا أو قدراته، فقد فعل كل ما بوسعه؛ لكن حال ضيقُ الوقت واستدعاء الدولة له للمشاركة بالأسطول في حربها ضد روسيا، جعل عمله في مصر ناقصًا. فقدَّمت لنا المصادر العثمانية رؤيةً جديدةً وإضافاتٍ مباينةً ومغايرةً للمصادر العربية في تقييم الحملة ونقدها، ويمكن القول: إن حسن باشا فشل في عدم إدراكه لقدرة المماليك في التوجه والهروب إلى صعيد مصر في أثناء مواجهتهم في القاهرة، واعتماده على تقرير الجزار باشا الذي لم يذكر عن هذا الأمر شيئًا قد جعله لا يحقق نصرًا مؤزرًا على المماليك، لهذا ترك الأمر ناقصًا وعاد إلى إستانبول.

---

[١] أحمد عبد العزيز علي عيسي: الصراع بين البيوتات المملوكية في مصر العثمانية ٩٢٣- ١٢١٣هـ/ ١٥١٧- ١٧٩٨م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب جامعة الإسكندرية فرع دمنهور، ١٤٢٢/ ٢٠٠١م، ص ١٣٥.

الخاتمة

خلصت هذه الدراسة إلى عدة نتائج مهمة، على النحو الآتي:

- أرادت الدولة العثمانية في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي تدمير الاستقلال المحلي الذي كان قد استشرى في ولاياتها المختلفة، وسعت إلى ربط هذه الولايات بالإدارة المركزية في إستانبول؛ لذا أرسلت حملة حسن باشا الجزائرلي لإعادة ولاية مصر إلى سلطتها، والقضاء على نفوذ المماليك؛ الذين حاولوا الاستقلال والتواصل مع دول أوروبا.
- محاولة الدولة العثمانية إخضاع الأقاليم المتمردة البعيدة عن مركز الدولة قبل استكمال حروبها مع الدول الأوربية، أي أنها أرادت استقرار أحوال هذه الأقاليم لتأمن جانبها، وحتى لا تُسبِّب لها القلاقل أثناء حربها؛ لهذا أرسلت حملة حسن باشا الجزائرلي إلى مصر لاستردادها من المماليك، وإخضاعها للسلطان العثماني.
- نجحت حملة حسن باشا الجزائرلي في إبعاد إبراهيم بك ومراد بك عن القاهرة، وتحديد إقامتهما في الصعيد، وتعيين إسماعيل بك ـــ الموالي للدولة العثمانية ـــ شيخًا للبلاد، وحسن بك الجداوي أميرًا للحج.
- أعاد حسن باشا إرسال "الخزينة الإرسالية" إلى الدولة من جديد، وتابع إرسال مخصصات الحرمين الشريفين كما كانت من قبل، وبهذا حقَّق أكبر أهداف الحملة.
- حالف التوفيق حملة حسن باشا الجزائرلي؛ واتضح ذلك في ربط ولايات الدولة البعيدة بالمركز في إستانبول، وإزالة صورة الضعف التي كان يروجها الغرب، وإثبات قدرة الدولة العثمانية على مواجهة التحديات، وإرسال أسطولها إلى إحدى ولاياتها البعيدة، وتوطيد الأمن في ولاياتها العربية.
- شعر عصاة المماليك أن سيف الدولة العثمانية ما زال حادًّا وطويلًا، ومن الممكن أن يلحقهم الأذى في أي وقت، لهذا أخذوا درسًا جيدًا من هذه الحملة، وإن لم تتمكن الحملة من القضاء عليهم نهائيًا؛ فقد فرَّقت جمعهم، وشتَّت شملهم، وأوقعت الخلافَ بينهم.
- أثبتت الدراسة اختلاف المصادر العربية والعثمانية في نظرتها إلى حملة حسن باشا الجزائرلي على مصر، تمثل ذلك فيما يلي:
  أ- أجمعت المصادر العربية على أن سبب الحملة يتمثل في طلب الخزائن المتبقية من المماليك؛ بخلاف المصادر العثمانية التي رأت أن إعادة مصر لسلطة الدولة العثمانية هو السبب الرئيس للحملة.

ب- لم تذكر لنا المصادر العربية شيئًا عن الخزينة التي أخذها حسن باشا إلى مركز الدولة، بينما أسهبت المصادر العثمانية في ذكر هذه الخزينة والتفاصيل المتعلقة بقيمتها على وجه التحديد بناء على التقارير المرسلة من حسن باشا إلى الدولة.

ت- انفردت المصادر العربية بذكر اعتداء حسن باشا على نساء المماليك وبيع جواريهم؛ بينما سكتت المصادر العثمانية عن ذلك.

ث- اتجهت نظرة المصادر العربية إلى الحملة نظرةً محليّة اجتماعية ضيقة، بخلاف نظرة المصادر العثمانية التي نظرت إليها نظرة عالمية شمولية عامة.

ج- جاء ذكر الحملة في المصادر العثمانية في إطار إصلاحات الدولة العثمانية الرامية إلى إعادة الاستقرار في ولاياتها، وذلك عن طريق القضاء على حركات العصيان في البلاد العربية وربطها بمركز الدولة، بينما ذكرتها المصادر العربية في إطار تأثير الحرب على المجتمع المصري بالسلب، وما تتركه من آثار سيئة.

المصادر والمراجع

١- وثائق الأرشيف العثماني: وثائق غير منشورة:

١- تصنيف دفتر مهمة مصر: دفتر رقم ١٠.

٢- تصنيف جودت/ معارف: C.ML.٧٦٤/٣١١٤٧، C.ML.١٦٩/٧١٢١.

٣- تصنيف جودت/ داخلية: C.DH.٩٣/٤٦٤٠، C.DH.٣١٣/١٥٦١٦.

٤- تصنيف باب آصفي/ قلم آمدي: A.{AMD.٢٢/٨٥}.

٥- تصنيف باب آصفي/ قلم ولاية مصر في الديوان الهمايوني: A.{DVN.MSR.١١/٢١٢}.

٢- المخطوطات:

أولًا: العربية:

١- إسماعيل الخشاب: **أخبار أهل القرن الثاني عشر الهجري**، نسخة خطية محفوظة بالمكتبة الوطنية الفرنسية بباريس، تحت رقم ٨٥٠.

٢- إسماعيل الخشاب: **مسالك التبيان في أخبار الأمراء وتراجم الأعيان**، نسخة خطية محفوظة بمكتبة الدولة ببرلين، تحت رقم ٢٨٥ Landberg.

٣- القلعاوي: **صفوة الزمان فيمن تولى على مصر من أمير وسلطان**، نسخة خطية محفوظة بمكتبة جامعة برنستون بأمريكا، تحت رقم ١٨٣.

ثانيًا: العثمانية:

١- أنوري سعد الله: **تاريخ أنوري**، مجموعة أسعد أفندي ضمن المكتبة السليمانية بإستانبول، رقم ٢٠٨٩.

٢- أنوري سعد الله: **تاريخ أنوري**، نسخة خطية أخرى بمجموعة ملت، ضمن مكتبة علي أميري، رقم ٦٧.

٣- طيلساني زاده حافظ عبد الله أفندي (عبد الله لبيبة): **تاريخ لبيبة**، مجموعة أسعد أفندي ضمن المكتبة السليمانية بإستانبول، تحت رقم ٢١٥٨.

٤- واصف أحمد أفندي: **محاسن الآثار وحقائق الأخبار (تاريخ واصف)**، نسخة خطية محفوظة بمكتبة جامعة إستانبول، تحت رقم ٢٦٧٣.

٣- المصادر المطبوعة:

أولًا: العربية:

١- عبد الرحمن بن حسن الجبرتي: **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، الطبعة الثالثة، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ١٤٤١هـ/ ٢٠١٩م.

ثانيًا: العثمانية:

١- أحمد جاويد: **حديقة الوزراء ذيلى، ورد مطرّى**، إستانبول ١٢٧١هـ.

٢- أحمد جودت باشا: **تاريخ جودت ترتيب جديد**، در سعادت، مطبعه عثمانيه، إستانبول ١٣٠٩هـ.

٣- أحمد راسم: **رسملى وخريطه لى عثمانلى تاريخى**، برنجى طبع، اوجنجى جلد، شمس مطبعه سى، إستانبول ١٣٢٩هـ.

٤- عبد الرحمن شرف: **تاريخ دولت عثمانيه**، جلد ٢، قره بت مطبعه سى، إستانبول ١٣١٢هـ.

٥- عثمان زاده أحمد تائب: **حديقة الوزراء**، إستانبول ١٢٧١هـ.

٦- مصطفى نوري باشا: **نتايج الوقوعات**، برنجى طبعه، اخوت مطبعه سى، إستانبول ١٣٢٧هـ.

٤- المراجع العربية:

١- إدوارد شيفرد كريسي: **تاريخ الأتراك العثمانيين**، ترجمة: أحمد سالم سالم، دار جامعة حمد بن خليفة للنشر، الطبعة الأولى، الدوحة، قطر ٢٠١٩م.

٢- إسماعيل بك سرهنك: **حقائق الأخبار عن دول البحار**، ط١، المطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة ١٣١٦هـ.

٣- إميل خورى وآخر: **السياسة الدولية في الشرق العربي**، دار النشر للسياسة والتاريخ، بيروت ١٩٩٠م.

٤- أندريه ريمون: **الحرفيون والتجار في القاهرة في القرن الثامن عشر**، ترجمة: ناصر أحمد إبراهيم، باتسى جمال الدين عباس، ج٢، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٥.

٥- عبد الرحمن فهمي: **النقود المتداولة أيام الجبرتي**، ضمن كتاب: "**عبد الرحمن الجبرتي دراسات وبحوث**"، القاهرة ١٩٧٦م.

٦- عبد الوهاب بكر: **الدولة العثمانية ومصر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر**، الطبعة الأولى، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٢م.

٧- ليلى عبد اللطيف أحمد: **الإدارة في مصر في العصر العثماني**، مطبعة جامعة عين شمس، القاهرة ١٩٨٧م.

٨- ماجدة مخلوف: **القانون الإداري لولاية مصر في العهد العثماني في ضوء التشريع الإسلامي مع الترجمة الكاملة لقانون نامه مصر**، الطبعة الأولى، دار الآفاق العربية، القاهرة ٢٠٠٨م.

٩- محمد رفعت رمضان: **علي بك الكبير**، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٩٨م.

١٠- محمد عفيفي: **الأقباط في مصر في العصر العثماني**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٢م.

١١- محمد فريد بك المحامي: **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، تحقيق: إحسان عباس، طبعة ١٢، دار النفائس، بيروت، لبنان ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.

١٢- مصطفى الصفوي القلعاوي: **صفوة الزمان في من تولى على مصر من أمير وسلطان**، تحقيق: محمد عمر عبد العزيز عمر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ٢٠٠٦م.

٥- المراجع التركية:

١- Ahmed Cavid: **Hadîkatü'l- Vüzerâ Zeyli**: **Verd-iMutarrâ**, haz. Mehmet Arslan, Kitapevi Yayınları, İstanbul ٢٠١٣.

٢- Ahmed Vâsıf Efendi: **Mehâsinü'l-Âsâr ve Hakaikü'l-Ahbâr**, yay. haz. MüctebaİlgürelEF Yayınları، İstanbul ١٩٧٨.

٣- İsmail Hakkı Uzunçarşılı: **Osmanlı Tarihi**, TTK Yayınları, Ankara ١٩٧٨.

٦- المراجع الإنجليزية:

١- P. M. Holt: **Egypt and Fertile Crescent: ١٥١٦-١٩٢٢**, London ١٩٦٦.

٢- Stanford J. Shaw: **The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt, ١٥١٧-١٧٩٨**, Princeton ١٩٦٢.

٧- الأطروحات والرسائل الجامعية والأبحاث العلمية:

أولًا: العربية:

١- أحمد عبد العزيز علي عيسى، **الصراع بين البيوتات المملوكية في مصر العثمانية ٩٢٣- ١٢١٣هـ/ ١٥١٧- ١٧٩٨م**، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب جامعة الإسكندرية فرع دمنهور، ١٤٢٢/ ٢٠٠١م.

٢- سحر علي حنفي، **الحملة العثمانية على مصر ١٢٠٠- ١٢٠١هـ/ ١٧٨٦- ١٧٨٧م في ضوء كتابات الجبرتي**، مجلة المؤرخ المصري، عدد ٣٨، ٢٠١١م.

٣- مصطفى محمد شوقي زهران، **تاريخ واصف: محاسن الآثار وحقائق الأخبار**، دراسة وترجمة الجزء الأول إلى اللغة العربية، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة الأزهر، كلية اللغات والترجمة، قسم اللغة التركية وآدابها، القاهرة ٢٠١٢م.

ثانيًا: التركية:

١- Ayşe Emecen: **Suriye Bölgesinde Bir Osmanlı Valisi ve İmajı: Cezzâr Ahmed Paşa (TSMA, nr. ٤٠٧٩'daki Takrir ve Nizanâme-I Mısır Adlı İki Raporun Neşir ve Tahlil Denemesi)**, M.Ü. Türkiyat Araştırmaları Enstitüsü , Yüksek Lisans Tezi, İstanbul ١٩٩٤.

٢- Filiz Bayram: **Enveri tarihi Üçüncü Cild Metin ve Değerlendirme**, Yayınlanmamış DoktoraTezi, İstanbul Üniversitesi, İstnabul ٢٠١٤.

٣- Hikmet Çiçek: **vekayinüvis Sadullah Enveri Efendi ve Tarihinin II. Cildinin Metin ve Tahlili (١١٨٧–١١٩٧/١٧٧٤–١٧٨٣),** yayınlanmamış Doktora Tezi, Atatürk Üniversitesi, Erzurum ٢٠١٨.

٤- Hilal Görgün: **İbrâhim Bey**, TDVİA, XXI.

٥- İsmail Hakkı Uzunçarşılı: **Cezayirli Gazi Hasan Paşa**, İA, V/١.

١- _____: **Cezâyirli Gâzî Hasan Paşa'ya Dâir**, Türkiyat Mecmuası, VII-VIII/١ İstanbul ١٩٤٢.
٢- Mahir Aydın: **Cezayirli Gazi Hasan Paşa**, TDVİA, VII.
٣- Necmi Ülker: **XVIII. Yüzyılda Mısır ve Cezayirli Gazi Hasan Paşa'nın Mısır Seferi**, Tarih İncelemeleri Dergisi, IX, İzmir ١٩٩٤.
٤- Refet Ganımı Eş-şeyh: **Şeyhülbeled,** TDV İslâm Ansiklopedisi, İstanbul ٢٠١٠.
٥- Seyyid Muhammed es-Seyyid, **İrsaliye**, DİA, c. ٢٢, Ankara, ٢٠٢٠.

٨- القواميس والمعاجم:

أولًا: العربية:

١- أحمد السعيد سليمان: **تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل**، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩م.
٢- درويش النخيلي: **السفن الإسلامية على حروف المعجم**، جامعة الإسكندرية ١٩٧٤م.
٣- س. موستراس: **المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية**، ترجمة: عصام محمد الشحادات، الطبعة الأولى، دار ابن حزم، بيروت ١٤٢٣هـ/ ٢٠٢٢م.
٤- صالح سعداوي صالح: **مصطلحات التاريخ العثماني**، دارة الملك عبد العزيز، الرياض ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م.
٥- محمد علي الأنسي: **الدراري اللامعات في منتخبات اللغات**، (دون بيانات نشر).

ثانيًا: العثمانية:

١- شمس الدين سامي: **قاموس الأعلام**، إستانبول، مهران مطبعه سى، ١٣٠٦هـ.
٢- _____: **قاموس تركي**، در سعادت، اقدام مطبعه سى، ١٣١٧هـ.
٣- محمد ثريا: **سجل عثمانى ياخود تذكرهء مشاهير عثمانيه**، مطبعهء عامره، ١٣٠٨هـ.

ثالثًا: التركية الحديثة:

١- Ali Rıza Alp ve Sabahat Alp: **Büyük Osmanlı Lugatı**, Ekicigil Matbası, İstanbul, ١٩٥٨.
٢- Ferit Devellioğlu: **Osmanlıca- Türkçe Küçük Lugat**, Tan Matbası, İstanbul, ١٩٤٩
١- Mehmet Zeki Pakalın: **Osmanlı Tarih Deyimleri ve Terimleri Sözlüğü**, Milli Eğütüm Bakanlığı Yayınları, İstanbul ١٩٩٣.